

* مشير باسيل عون

الغيبة الإلهية في فكر مارتن هайдغر

تتناول المقالة أول مرة في العالم العربي مسألة الله في فكر الفيلسوف الألماني مارتن هайдغر. وينعقد التحليل على استجلاء الروابط التي ينشئها هайдغر بين كينونة الكائنات وحقيقة الله. ومن خلال استطاق النصوص الألمانية التي أنشأها هайдغر في تدبر مسألة الغيبة الإلهية، تعالج هذه المقالة حقيقة العلاقة التي تنشط بين حرّية الكينونة في الاعتلان والاحتجاب وحرّية الله في الإقبال والانكفاء. فالله، في نظر هайдغر، لا يمكنه أن يتجلّ إلا حين يراعي الإنسان هذين الضريبيْن من الحرّية، ولو أن مقام الصدارة يبقى للكينونة التي تهيمن على جميع تحجّيلات الوجود. ومن ثمّ، فإن مسألة ظهور الله أو غيابه مرتبطة بالاعتلان السليم للكينونة في الكائنات والموجودات والأشياء. وليس للإنسان أن يفرض على الكينونة ضرباً من الظهور يخالف ما تستتبّه هي من تفتح حرّ في الوجود. ولما كان قرار الكينونة مستقلاً عن قرار الكائنات في نظر هайдغر، فإن قرار الله في الانكشاف الذاتيّ تصونه حرّية الكينونة من تلاعبات الاقتدار البشري. وبذلك يحرر هайдغر الله من قوالب الفهم البشري وتصوّراته ومقولاته، ولكنه يعود فيربطه بحرّية الكينونة ومشيّتها الذاتية. غير أن هذه الكينونة تروم في جوهر مقاصدها الخفر في الظهور والرفق في التواري والأصالة في التحقق. وهي تناهض أيّها مناهضة مشاريع التسلط التقني المعاصر على الكائنات والأشياء. ولذلك قد يكون ربط الله بحرّية الكينونة من أنساب ضروب الإنعماق للمقام الإلهي، فإذا بالله يتجلّ في أصل الاقتران الحيوي بين المائتين والآلهة والأرض والسماء، وهو قران رباعي الأبعاد يختزن مكتنّزات الاختبار الأصلي لحقيقة الكينونة.

 من خصائص فكر هайдغر أنه يؤثّر التحدث عن الغياب والغيبة والاغتراب والغربة والانحصار والتواري، ويُعرض عمداً عن مقولات الخضور والثبات والاستقرار والديمومة. ومن أسباب التعارض بين الكتلتَيْن أنه يرشق مقولات الكتلة الثانية بتهمة الإعداد

لإمساك العقلي بما هيات الوجود، وفي مقدمتها الكينونة والزمن والإنسان والله. وحين يتناول مسألة الكينونة في كتاباته، وهي المسألة الوحيدة التي تستأهل في نظره التفكير الرصين، فإنه يؤثّر الحديث عن الانحصار العمدي والتواري القصدي صوناً للكينونة من إمساكات العقلانية الحسابة. وينهج النهج عينه حين يتطرق إلى مسألة الله. فإذا به يؤثّر الحديث عن الغيبة الإلهية صوناً لإطلاق صور الله المنسلكة في الأنظومات الدينية؛ فالإله الذي يتحدث عنه هайдغر هو إله الخواتيم والنهايات القصوى، الإله الأخير الخليق وحده يإنقاذه الأرض والناس من هيمنة التقنية المستبدة. ولكن السبيل إليه هو في استعداد الإنسان لرعاية الكينونة^(١)، أو بالأحرى في استعداد الكينونة لاستدعاء الإنسان واستشارة رعايته لها. فالكينونة هي، في أقصى مقاصد هайдغر، صاحبة القول الفصل في الإعداد لظهور الإله الأخير. وما على الإنسان سوى التحرّي عن علامات الأزمنة، عليه يفوز بإشارة تدلّه على سهل قويم لأنبساط الكينونة في حقيقة أصالتها. فالكينونة التي تحتجب من وراء الكائنات والأشياء والموجودات هي من البساطة المطلقة والعمق السحيق ما يربك الإنسان في إقباله إليها. وهو لن يتسىّن له معainة اعتلان الإله الأخير ما لم يدرك إدراكاً سليماً معاني الغيبة الإلهية الراهنة.

من أنجع السبل لاستجلاء دقائق التصور الذي أنشأه هайдغر في مقوله الإله الأخير أن يتحرى البحث أولاً عن المراحل التي اجتازها فكره منذ زمن المحاضرات الأولى وكتاب الكينونة والزمن الذي صدر سنة ١٩٢٧، مروراً بالمنعطف الخطير الذي دفع به إلى البحث في تجلّيات الكينونة وقد أكبّ يتبصر في تدابير الكينونة عينها لا في البنى الأصلية لاختبارات الإنسان الوجودية، وانتهاءً بالتأملات الصوفية التي أضفت به إلى الإعراض عن التعقب العقلي المفضّل لسؤال الوجود والركون إلى اللغة الشعرية الرمزية من خارج دائرة المسعى الميتافيزيائي. ومن ثم، يمكن النظر في الأثر الذي تركه فكرُ السابقين، ومنهم كيركغارد وهولدرلين ونيتشه، من تناولوا مسألة الله في سياق مقتضيات الإعتاق التي يستلّيها اختبار الأصالة في المسعى الإنساني. بعد ذلك، يعمد البحث إلى استنطاق النصوص التي فيها يُفصّح هайдغر عن تصوره لهوية الإله الأخير وقد افترض شرطاً لعبوره الإقبال السليم إلى الكينونة في رحابة تجلّياتها وانحصاراتها. وفي الختام يجري الاستفسار عن الاستدعاءات الفلسفية واللاهوتية التي يتضمّنها هذا التصور الغريب لهوية الإله الأخير. وفي صلب هذا الاستفسار ترسّم حدود التصور وأفاقه.

(١) الكينونة تعرّيب للكلمة الألمانية *Sein*. وقد يعرّبها بعضهم بأسماء أخرى، من مثل الوجود والأيس والكائن والكون. والمعلوم أن فعل الكون تشتّق منه في العربية مفردات شتى، منها ما يتنمّي إلى طائفة المصادر كالكون والكينونة، ومنها ما يتنمّي إلى طائفة الأسماء كالكيان والكائنات، ومنها ما يتنمّي إلى طائفة المصدر الصناعي كالكيانية والكائنية والكونية والكونية والكونانية. والمطلوب التبحّر في جميع هذه المشتقات واستخدامها استخراجاً حصيناً في تعرّيب مشتقات المفردة الألمانية. وبما أن هайдغر طرق في كتاباته الأخيرة يضرّب صفحًا عن الرسم الأصلي للمفردة الألمانية ويرسمها في صورة جديدة (*Seyn*) للإفصاح عن قطعة معرفية حادة مع موروثات الأنطولوجيا الإغريقية في الفلسفة الوسيطية والحديثة، ارتأيت أن أقلّلها أنا أيضًا في صياغة عربية شاذة (الكون) تشبه غرابيتها غرابة الصياغة الألمانية الشاذة.

مسرى الإنضاج الفكري في حقبة الأساسية

يتخير جان غريش أربع مراحل^(٢) اجتازها هайдغر (١٨٨٩ - ١٩٧٦) في تناوله مسألة الله^(٣)، فوسمت فكره الديني وأبرزت فيه من التقلب والتتموج ما يُنبع عن تعسر مصاحب لمسرى النضج الفكري الذاتي. في المرحلة الأولى، يتطرق هайдغر في مستهل تدرسيه الجامعي في جامعة فرایبورغ الألمانية ١٩١٩ - ١٩٢٣ إلى الحياة الدينية، فيسعى إلى استنطاقها استنطاقاً يستلهم طرائق الفِنونِمُنولوجيا التي وضع لها أسسها أستاذُه الشهير هوسرل (١٨٥٩ - ١٩٣٨). والفنونِمُنولوجيا طريق في التفكير يتطلب جوهراً الأمور كما تعتلن للوعي القاصد إليها. وهي طريق أشبه بالسهل الممتنع تروم أن تأتي الأشياء من غير أن تعزّلها عن سياق الاختبار الوجداني في معتبر الارتباط بواقع الحياة. ومن النصوص التي أكب هайдغر على تفسيرها في أطلياته الجامعية الأولى رسائل بولس الرسول وكتابُ الاعترافات للقديس أوغسطينس. واستناداً إلى مثل هذه المقاربة الأولى، أنشأ هайдغر تصوّراً للحياة الدينية مبنّياً على مسألة السمات الواقعية التي تتسم بها هذه الحياة؛ ذلك أن هذه المرحلة الأولى من مراحل تكون الفكر الديني في كتابات هайдغر استقطبها فسارة الحياة كما تجلّى للكائن الإنساني (الدازين) في واقعيتها الحاضرة^(٤). وتتصف هذه المرحلة الأولى بانصراف الفيلسوف الشاب إلى دراسة اللاهوت المسيحي والتعمق في الروحية المسيحية. غير أن الإكباب على تدبر معانٍ الإيمان المسيحي صاحبه اعتمادٌ فطّن بها اكتسبه من أستاذه في جامعة فرایبورغ الذي ابتكر الفِنونِمُنولوجيا سبيلاً إلى اكتناه جوهراً الأشياء، وبما حفظه من ديلتاي الذي ألمّه فكرة الحياة كموقع سَيِّي لتحقق جميع اختبارات الوجود.

في المرحلة الثانية (١٩٢٤ - ١٩٢٨)، يتصدر كتاب الكينونة والزمن المقام الأول في مسوى هайдغر الفكري. ومن صلب هذا المقام ينبع السؤال الأنطولوجي يعيّن اتجاه البحث. فالكتاب كله منعقد في خلفيته على مسألة الكينونة. أمّا السبيل الأول الذي انتهجه هайдغر للبلوغ إلى هذه المسألة، فكان التبصر

(٢) جان غريش (J. Greisch) من أعظم الباحثين الفرنسيين في فكر هайдغر الديني وفي الفسارة الأنطولوجية التي أنشأها. ولقد خصص لهайдغر بحثاً مستفيضاً تناول فيه مسألة الله استناداً إلى الأنطولوجيا الجديدة، انظر: Jean Greisch, *Le Buisson ardent et les lumières de la raison: L'Invention de la philosophie de la religion, philosophie et théologie* (Paris: Les Ed. du Cerf, 2004), tome 3: Vers un pragmatisme herméneutique, pp. 499-734.

ولقد استندت إلى هذه البحث الرصين في رسم تفصيات هذا التحقيق الفكري.

(٣) من الأمانة العلمية الإشارة إلى أن تعريب المفردة الألمانية (Gott) تنوّع شنوع السياق الذي يستخدم هайдغر فيه هذه الكلمة. وباستثناء بعض الحالات النادرة، عربت المفردة الألمانية التي تصاحبها في نصها الأصلي أداة التعريف (der Gott) بمفردة الإله، وعربت المفردة الألمانية التي لا تصاحبها في النص الأصلي أداة التعريف (Gott) بمفردة الله. ومن المفيد التذكير هنا بأن هайдغر لا يقيّد فكره بما تستشيره الأديان التوحيدية من إشكالية التعارض بين الله الواحد الأحد والألهة المزاجمة له.

(٤) هذه الحياة الواقعية التي قال عنها برغسون إنها عصبية على الإمساك العقلي. انظر:

Henri Bergson, *Oeuvres; Essai sur les données immédiates de la conscience; Matière et mémoire; Le Rire; L'Evolution créatrice. L'Energie spirituelle. Les Deux sources de la morale et de la religion. La Pensée et le mouvant*, textes annotés par André Robinet ; introduction par Henri Gouhier, 3ème éd. (Paris: Presses universitaires de France, 1970), p. 1253.

يتناولها هайдغر كموقع لأنوثق المعنى وانبساطه في منفحة الوجود؛ ذلك أن الحياة في وقوعيتها (Faktizität) ليست مجرد تراكم عشوائي للوقائع والحوادث، بل هي بنية منتظمة تعتقد كينونتها على معنى لصيق بها. انظر: Martin Heidegger, *Grundprobleme der Phänomenologie* (1919/1920), herausgegeben von Hans-Helmut Gander, Gesamtausgabe/ Martin Heidegger. II. Abteilung, Vorlesungen 1919-1944; Bd. 58 (Frankfurt am Main: V. Klostermann, 1993), p. 148.

في البنية الكيانية الخالصة التي تقوم عليها كينونة الإنسان الذي يدعوه هайдغر الدازين^(٥). ومع أن مسألة الله تغيب غياباً كلياً عن توسعات هذا السفر الفلسفـي الجليل، فإن مقاصد المشروع الفكري الذي يحمله هайдغر في مسأـلة الكينونـة في عـمق جوهرها لا يجوز لها أن تقضـي الاستفسـار الدينـي إقصـاءً قاطـعاً؛ ذلك أن تحليل هذه البنـية الكـيانـية الخـالـصـة يـُفضـي بهـاـيدـغر إلى استـجـلاء بـضـعـة من الاختـبارـات التـأـصـيلـية يـُعـبـرـ عنها صـاحـبـ الكتابـ في مـفـهـومـ الـانـهـامـ الـكـيـانـيـ ومـفـهـومـ الإـنـسـانـ القـابـلـ للـمـوتـ (المـائـيـةـ) وـمـفـهـومـ المـحـدـودـيـةـ التـارـيـخـيـةـ التيـ تـكـتـنـفـ الـوـجـودـ الـإـنـسـانـيـ بـرـمـتهـ. وـمـاـ تـجـدرـ الإـشـارـةـ إـلـيـهـ فيـ هـذـاـ السـيـاقـ أـنـ كـتـابـ الكـيـنـونـةـ وـالـزـمـنـ لـمـ تـكـتمـلـ موـادـهـ لـأـسـبـابـ تـرـقـيـ إـلـىـ الـمـعـطـفـ الـذـيـ اـخـتـبـرـهـ هـاـيدـغرـ حـينـ آـثـرـ الـإـعـراضـ عـنـ مـسـأـلةـ الـكـائـنـ الـإـنـسـانـيـ (الـدـازـينـ)ـ وـإـلـيـقـابـ رـأـسـاـ إـلـىـ الـكـيـنـونـةـ عـينـهاـ يـتـرـصدـ إـشـارـاتـهاـ وـيـتـدـبـرـ إـيـاءـهـاـ الـخـفـرـةـ.

ويجوز للسائل أن يسأل عن معنى الاستفسـارـ الخـاتـميـ الذيـ صـاغـهـ هـاـيدـغرـ حـينـ أـحـسـ أنـ الدـازـينـ يـحـتـملـ استـنـطـاقـاـ أـبـعـدـ مـنـ الـبـنـىـ الـمـسـتـخـرـجـةـ، عـنـيـتـ بـهـاـ قـابـلـيـةـ الإـنـسـانـ للـمـوتـ وـمـحـدـودـيـةـ الـوـجـودـ الـتـارـيـخـيـ وـالـانـهـامـ الـكـيـانـيـ الـأـبـلـغـ وـالـاسـتـبـاقـ الـمـسـتـشـرـفـ لـلـإـمـكـانـاتـ الـثـرـةـ الـتـيـ يـزـخـرـ بـهـاـ الـكـائـنـ الـإـنـسـانـيـ فـيـ إـقـابـهـ إـلـىـ ذـاـتـهـ مـنـ آـفـاقـ مـسـتـقـبـلـهـ الـأـبـعـدـ: «ـهـلـ يـمـكـنـ الـمـرـءـ أـنـ يـدـرـكـ أـيـضـاـ الـدـازـينـ إـدـراكـاـ أـشـدـ تـأـصـلاـ مـنـ الـإـدـراكـ الـحـاـصـلـ فـيـ مـشـرـوعـ وـجـودـ الـأـصـيلـ؟ـ»^(٦). فـالـمـسـعـيـ الـذـيـ يـنـطـوـيـ عـلـيـهـ كـتـابـ الـكـيـنـونـةـ وـالـزـمـنـ يـقـضـيـ بـمـسـأـلةـ الـوـجـودـ الـأـصـلـيـ لـلـكـائـنـ الـإـنـسـانـيـ تـمـهـيـداـ لـاستـخـرـاجـ مـعـنىـ الـكـيـنـونـةـ مـنـ بـنـىـ الـاـخـتـبـارـ الـأـسـاسـيـ الـتـيـ تـحـمـلـهـ كـيـنـونـةـ هـذـاـ الـكـائـنـ الـإـنـسـانـيـ. فـإـذـاـ كـانـ كـتـابـ الـكـيـنـونـةـ وـالـزـمـنـ مـاـ اـكـتـمـلـتـ عـدـتـهـ، وـإـذـاـ كـانـ مـثـلـ هـذـاـ الـاـسـتـفـسـارـ يـشـعـ الـآـفـاقـ لـاستـجـلاءـاتـ شـتـىـ فـيـ كـيـنـونـةـ الـكـائـنـ الـإـنـسـانـيـ، فـإنـ التـفـكـرـ فـيـ الـأـبـعـادـ الـدـيـنـيـةـ لـلـوـجـودـ الـإـنـسـانـيـ لـاـ بدـ مـنـ أـنـ يـسـتـنـهـضـ فـكـرـ هـاـيدـغرـ وـيـدـفـعـهـ مـنـ بـعـدـ مـرـحلةـ الـكـيـنـونـةـ وـالـزـمـنـ إـلـىـ مـقـارـيـةـ هـذـهـ الـأـبـعـادـ بـالـتـحـريـ عنـ اـخـتـبـارـاتـ إـنـسـانـيـةـ أـخـرـىـ. وـمـاـ يـبـرـرـ بـعـضـاـ مـنـ هـذـاـ اـنـشـغـالـ الـفـكـرـيـ أـنـ هـاـيدـغرـ كـانـ مـاـ انـفـكـ مـواـظـبـاـ فـيـ هـذـهـ الـحـقـبةـ مـنـ حـيـاتـهـ عـلـىـ الـمـشـارـكـةـ فـيـ الصـلـاـةـ الـمـسـائـيـةـ (صلـاةـ النـوـمـ بـحـسـبـ الطـقـسـ الـكـاثـولـيـكـيـ الـلـاتـيـنـيـ)ـ فـيـ أـحـدـ الـأـدـيـارـ فـيـ جـنـوبـ الـمـانـيـاـ^(٧).

(٥) الدازين (Dasein) مفردة مشتقة من المعجم الألماني الكلاسيكي. استخدمها كأنط مراداً للكلمة اللاتينية existentia، وهي تعني في أصلها وجود الشيء، يقابلها احتمال وجوده أو إمكانه أو حتى ضرورته المنطقية. وخلافاً لنطقها الأصلي، حيث النبرة توضع على الجزء الأول من الكلمة (Da)، يؤثر هайдغر أن ينطقوها وقد وُضـعـتـ النـبـرـةـ عـلـىـ الـجـزـءـ الـثـانـيـ (Sein). فالـدـازـينـ يعني أنـ الإـنـسـانـ هوـ المـوـضـعـ الـذـيـ فـيـهـ تـنـشـأـ الـصـلـةـ الـعـفـوـيـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ الـأـشـيـاءـ. فالـدـازـينـ هـوـ الـإـنـسـانـ وـهـوـ اـنـفـاتـ الـأـشـيـاءـ. وـبـمـاـ أـنـ الـافـتـاحـ عـلـىـ الـأـشـيـاءـ هـوـ مـاـ يـُنـشـئـ إـنـسـانـيـةـ الـإـنـسـانـ، فـإـنـ الـدـازـينـ هـوـ، بـحـسـبـ هـاـيدـغرـ، الـوـصـفـ الـأـنـسـبـ لـلـهـوـيـةـ الـإـنـسـانـيـةـ. الـأـشـيـاءـ هـيـ، فـيـ صـلـبـ حـرـاكـهـ، مـقـبـلـةـ إـقـبـالـاـ غـفـرـاـ إـلـىـ الـإـنـسـانـ مـنـ غـيرـ أـنـ يـخـضـعـهـ الـإـنـسـانـ لـعـقـلـهـ الـحـسـابـ. وـمـنـ ثـمـ، فـإـنـ الـدـازـينـ يـغـدوـ هـوـ الـوـصـفـ الـذـيـ يـعـاـيـنـ فـيـ الـإـنـسـانـ مـوـضـعـ مـسـأـلةـ الـكـيـنـونـةـ، وـمـوـضـعـ اـخـتـبـارـ تـفـتـحـاتـ الـكـيـنـونـةـ وـإـقـابـهـ إـلـىـ الـإـنـسـانـ. وـلـشـدـةـ مـاـ يـحـتـشـدـ فـيـ هـذـهـ الـمـفـرـدةـ مـنـ مـضـامـينـ عـيـقـةـ الـمـدـلـولـ، آـتـرـ آـنـ أـنـقـلـهـاـ فـيـ حـلـهـاـ الـأـلـمـانـيـةـ الـأـصـلـيـةـ مـنـ غـيرـ تـرـيـبـ.

(6) «Kann das Dasein noch ursprünglicher verstanden werden als im Entwurf seiner eigentlichen Existenz?» in: Martin Heidegger, *Sein und Zeit*, hrsg. von Friedrich-Wilhelm von Herrmann (Frankfurt am Main: V. Klostermann, 1977), p. 492.

(7) من بين الذين تتبعوا تطور هайдغر في مقارنته للإيمان الديني ينiri هانس غيورغ غادامير يبرز مواطنة هайдغر على الاعتناء بالحيث الخفri بمسائل الله والروح والدين والإيمان والمسيحية، انظر:

Hans-Georg Gadamer, «La Dimension religieuse,» dans: Hans-Georg Gadamer, *Les Chemins de Heidegger*, trad., présentation et notes de Jean Grondin, bibliothèque des textes philosophiques (Paris: J. Vrin, 2002), pp. 187-202

في المرحلة الثالثة التي علق فيها هайдغر موقف الحيداد الفكري^(٨) في شأن المسألة الإيمانية، وهو الموقف الذي اعتصم به في أثناء تحليله بنى الاختبار الإنساني في الدازاين، طرأ تحول فكري استثنائي بالإقبال على قراءة أعمال كانط والنظر في البنية الميتافيزيائية التي ينهض عليها القوام الإنساني برمته. فالاهتمام بكتابات كانط دفع بهайдغر إلى التأمل في ميتافيزياء الدازاين بعينها، وهي مقاربة تستعيد الأسئلة الأربع التي صاغها كانط وتستجلّي فيها استعداداً فطرياً في الإنسان يلزمه الاستفسار عن مبررات الرجاء^(٩). واستناداً إلى طبيعة هذه الأسئلة، يجتهد هайдغر في قراءتها قراءة مختلفة يستخرج منها المضامين التي تنطوي عليها والتي تحمله على القول بأنها «أسئلة تُنبئ عن محدودية الإنسان»^(١٠). أمّا السؤال الأخير عن ماهية الإنسان، فإنه يتعدى المدى الأنثروبولوجي ليلامس تحوم الميتافيزياء؛ ذلك أنّ السؤال ينطوي بصياغته الألمانيّة على فعل الكون (ist) ويرمي إلى استجلاء كينونة الإنسان وارتباطها بكينونة الكائنات كافة.

وحين يعكف هайдغر على تعين ماهية الكائن الإنساني (الدازاين) يستوقفه فعل التفلسف الذي يستقطب أشد حركات الوعي وأفصحها تعبيراً عن جوهر الوجود الإنساني، ألا وهي حركة التسامي التي تُطلّ بالإنسان على المنفسح الأرحب للأشياء ولكينونة الأشياء: «التفلسف هو التسامي البين»^(١١). والتسامي يحمله هайдغر على معنى تجاوز الذات لذاتها حتى تبلغ أقصى إمكاناتها المنطوية فيها. فالتسامي تحرير للذات مما يكبلها في آنية التتحقق الفوري. ومن ثم، ينبغي للكائن الإنساني أن يتحرر في ذاته كل طاقات التفلسف^(١٢) حتى يفوز بأصالة فريدة لكينونته. ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن بنية التسامي في الدازاين تبرر له الإقبال على الفن والشعر والعلم والدين. وهذه كلها تجليات لفعل التفلسف في الكائن الإنساني. غير أن هайдغر لا يولي المقام عينه للعلم، إذ إنه يعتبره مجرد خادم لفعل التفلسف المحرر. أمّا

(٨) يستعرض هайдغر أسباب هذا الحيداد المعرفي في تحليله الذاتي لكتاب الكينونة والزمن. انظر:

Martin Heidegger, *Metaphysische Anfangsgründe der Logik im Ausgang von Leibniz*, herausgegeben von Klaus Held, His Gesamtausgabe; Bd. 26: Abteilung 2, Vorlesungen 1923-1944, 2nd ed. (Frankfurt am Main: Klostermann, 1990), pp. 171-195.

(٩) هي الأسئلة التي وضعها كانط لاستجلاء طبيعة المسعى الإنساني في جميع أبعاده (ماذا يمكنني أن أعرف؟ ماذا يجب عليّ أن أفعل؟ ماذا يجوز لي أن أرجو؟ ما الإنسان؟). ومن المعلوم أن كانط يعتبر أن الأسئلة الثلاثة الأولى يختارنها السؤال الأنثروبولوجي الرابع عن ماهية الإنسان. انظر:

Immanuel Kant, *Logique*, Traduction par L. Guillermit (Paris: J. Vrin, 1966), p. 25.

ولقد تناول هайдغر كانط في مقارنته النقدية للمسألة الميتافيزيائية في بضعة من الأبحاث ظهرت في مجموعة الأعمال الكاملة. انظر: Martin Heidegger, *Phänomenologische Interpretation von Kants Kritik der reinen Vernunft*, hrsg. von Ingrid Görland, His Gesamtausgabe; Bd. 25: Abteilung 2, Vorlesungen 1923-1944 (Frankfurt am Main: Klostermann, 1977); *Seminare: Kant, Leibniz, Schiller*, Gesamtausgabe/ Martin Heidegger; Bd. 84. Abt., *Kant und Hinweise und Aufzeichnungen* (Frankfurt am Main: Klostermann, 2013), et *das Problem der Metaphysik*, Gesamtausgabe. I. Abt., Veröffentlichte Schriften, 1910-1976 / Martin Heidegger; Bd. 3, 6th ed. (Frankfurt am Main: V. Klostermann, 1998).

(١٠) انظر:

Martin Heidegger, *Der deutsche Idealismus (Fichte, Schelling, Hegel) und die philosophische Problemlage der Gegenwart*, Gesamtausgabe. II. Abteilung, Vorlesungen 1919-1944/ Martin Heidegger; Bd. 28 (Frankfurt am Main: V. Klostermann, 1997), p. 235.

(11) «Philosophieren ist ausdrückliches Transzendieren», in: Martin Heidegger, *Einleitung in die Philosophie*, Gesamtausgabe. II. Abteilung, Vorlesungen 1919-1944 / Martin Heidegger; Bd. 27 (Frankfurt am Main: V. Klostermann, 1996), p. 354.

(١٢) انظر: المصدر نفسه، ص ١١.

الدين، فإنه يظهر في هذه المرحلة الثالثة كموضع لاستفسارات الدازاين عن مجموع تجليات الكينونة في الكائنات قاطبة. فالكينونة، في رحابة تجلياتها، تُفضي بالإنسان إلى الورع الخفِر، فإذا به يعجب من أن الكينونة مقبلة إليه في جميع الكائنات ومنحجبة عنه على نحو أخذاد. ولا سبيل إلى الثبات في هذا الموضع إلا بالجرأة على استشراف العدم كحالة من حالات تنزه الكينونة عن كل انتساب في الكائنات. فالعدم، أي اعتاق الكينونة من كل ضروب الإسناد الخبري والوصفي، خلائق وحدها لأن يُظهر الكينونة على حقيقتها، منغلَّة في جميع الكائنات تضخ فيها الحياة، ومتتنعةً عنها تسمو عليها وتشدّها إليها شدًا. ولا ريب في أن ميتافيزياء الكائن الإنساني (الدازاي) التي سمت المرحلة الثالثة من مراحل إنصаж التفكير في مسألة الله إنما تعني ارتقاء الإنسان من حالة الاصطدام الحابس بالكائنات إلى حالة الافتتاح المشرع على رحابة الكينونة. والافتتاح هذا لا يتحقق إلا بانتعاش الدازاين من التحامه الضيق بالموجودات وتساميه عليهما: «الفلسف، بما هو إتاحةُ الحدوث للتسامي، هو تحريرُ للدازاي. حرية الدازاين هي التي تتحرر بذلك، ولا تقوم الحرية إلا بالتحرر»^(١٣). هو إذاً فعل الفلسف الذي يتيح للدازاي أن يسمو على الكائنات ويتيح لتسامي الدازاين أن يحدث حدوثاً فاعلاً في مسرى البحث عن أصلية الكينونة الكامنة فيه. وعلى قدر ما يتطلب الدازاين عمقَ كينونته، يختبر ضرباً شتى من الافتتاح على رحابة الكينونة في تنوع تجلياتها. بيد أن مقام الصدارة ما انفك محفوظاً في هذه المرحلة للكائن الإنساني الباحث عن أصل كينونته واستقلال قوامه وأقصى طاقاته. فالمثال الأول لا يتصوره هайдغر على شاكلة الخير الأفلاطوني، بل يتلمسه في صورة الغاية الكيانية الأساسية التي يتوق إليها الدازاين: «الخير هو ما من أجله يكون الدازاين على ما يستطيع أن يكون عليه، ما به يُقبل الدازاين إلى ذاته ويقرر بذلك ذاته»^(١٤). ومعنى هذا القول أن تسامي الكائن الإنساني إنما هو إقبال إرادي على عمق الكينونة التي فيه. وهي كينونة إنسانية تشتراك مع كينونة الكائنات والموجودات والأشياء وتسمو عليها بما ينطوي فيها من وعي للكينونة يسائلها ويرعاها ولا ينفك يستجيب لها ولنداءاتها. ومن هذه النداءات ينبري نداء الإله يستنهض الكائن الإنساني إلى أصلية ذاتية فريدة. بيد أن مثل هذا النداء المنبعث من بنية التسامي التي تتعقد عليها كينونة الدازاين لم يستقطب اعتماد هайдغر إلا في المرحلة الرابعة والأخيرة من مسرى تفكيره الأنطولوجي.

ممّا لا شك فيه أن هذه المرحلة الرابعة تتصرف بصفات الغوص الصوفي والالتباعات الجوانية والتأملات الروحية. وهي صفات تلائم المنعطف الذي وضع هайдغر على طريق التفكير المباشر بحقيقة الكينونة انطلاقاً من حراك الكينونة عينها، لا من اختبار الدازاين لما يحمله في ذاته من بنى الافتتاح على الكينونة، على نحو ما استبيان ذلك في كتاب الكينونة والزمن. فالكينونة، في هذه المرحلة الأخيرة من تفكير هайдغر، هي التي تخاطب الإنسان، وهي التي تلهمه الكلام والتعبير، وهي التي تُعيّن له مسالك اختباراته التاريخية.

(13) «Philosophieren als Geschehenlassen der Transzendenz ist die Befreiung des Daseins. Befreit wird die Freiheit desselben, und Freiheit ist nur in der Befreiung,» see: Heidegger, *Einleitung in die Philosophie*, p. 401.

(14) «Das Gute ist dasjenige, umwillen dessen das Dasein ist, was es sein kann, worin es zu sich selbst kommt, für sich selbst sich entschieden hat» see: Heidegger, *Der deutsche Idealismus*, p. 361.

لذلك، لا بد من استهلال بــ بدء جديد للفكر يلائم حراك الكينونة الذاتي. ومن الكلمات التي ألمتها الكينونة هايدغر عبارة الإرأيُّنِيس (Ereignis) الألمانية التي احتار أهل الفكر في ترجمتها في الغرب وفي الشرق^(١٥). وقد تعني، في ما تعنيه، حركة الكينونة في الإفصاح عن ذاتها انكشافاً وانجواباً، إقبالاً على الكائنات وإدباراً عنها، استدحراً لحقيقة الكائنات واستدحراً للكائنات فيها، تأثيراً مجانياً لها في الوجود وانسحاباً خفراً لها من التاريخ.

تعبيرًا عن هذه الحركة الجدلية الناشطة في الكينونة، طفق هايدغر، في هذه المرحلة الأخيرة، يستعين بلغة الشعر، وفي طليعتها، لغة الشاعر الألماني هولدرلين يستنطقه عن أفضل السبل إيماءً للإتيان بكلام يليق بمكانة المقدس الرفيعة. وفي موازاة هذا النهج الإيحائي، أكب يتأمل في انتقاد نيته الحاد للإله الميتافيزيائي الذي يتماهى هو ومقولة العلة الأولى في الأنطولوجيا التي تخلط ببحث الكينونة (الأنطولوجيا) بمبحث اللاهوت (التيولوجيا). ولا بد في هذا السياق من الإشارة إلى أن حديث هايدغر الأخير عن الإله الذي يتطلع الناسُ ليتقذهم من مخنة الضياع المعاصرة إنما يدل على اختبار صوفي شخصي أفضى بالفيلسوف الكاثوليكي المنشأ والنشأة والتنشئة إلى الاعتصام بقدرة خلاصية خارقة تستطيع وحدها أن تُعتقد البشرية من تصارع الأيديولوجيات الفتاكة ومفاسد التقانة المدamaة.

إعتقد الله من قيود الأنطولوجيا الميتافيزيائية

ربما يكون من المفيد التأمل النبوي في صورة هذا الإله الأخير (إله النهايات) الذي أخذ هايدغر يلتجأ إليه في معارضته معاشر الشر والفساد في الكون. ولكن قبل الشروع في هذا التحليل، لا بد من استجلاء الموقف الذي يقفه هايدغر من مسألة الانحراف الميتافيزيائي الذي أفضى بالفكر الأوروبي الغربي إلى نشوء الأنطولوجيا. فالتعقل الغربي لمقوله الكينونة استند في نشأته إلى ما قاله أفلاطون وأرسطو في شأن الكينونة وارتباطها بالعلة الأولى. وكان هذا التعقل ما فتئ أسيراً للتحري السببي عن أصل الكائنات. والحال أن هايدغر لا يستحسن مثل هذا التحري السببي لأنه يضيق على الكينونة في مقوله العلة ويُخضعها لمقوله تعالى الإلهي. وهو بذلك تعقلٌ يُعرض عن اللمعات الفذة التي أتى بها أهل الفكر اليوناني الذين كانوا قبل زمن سocrates يصونون للكينونة مقام الصدارة في الفكر ويتحدون للإلهيات أن تتجلّ بحرية في منفسحات الانبساط التاريخي للكينونة.

(١٥) الكلمة مشتقة من فعل الاستملاك الذاتي أو الاستدلال الذاتي أو التخصيص الذاتي (ereignen). وبحسب هذا المعنى الأول، فإن الإرأيُّنِيس تعني بلوغ الكائنات كينونتها الخاصة وبلغ الكينونة أصالتها الذاتية. وفي هذا جوهر المسعى الذي ييرر إعراض هايدغر عن المقاربة الميتافيزيائية للكينونة، حيث العقل الحساب ينصب الكينونة علة أولى وجوهراً صمداً وكائناً أسمى. والاستملاك لا يعني في هذا السياق الاستحوذ على الشيء، بل بلوغ الشيء ذاته الخاصة واستدلاله لكتينونته في عمق ذاته. وثمة معنى آخر للكلمة في صيغة الفعل المتضمن للتفاعل (sich ereignen)، وهو معنى يدل على حدوث الشيء وتأتيه في الوجود. أما المعنى الأخير المشتق من الفعل الألماني القديم الحامل لدلالة النظر (er-augnen)، فيشير إلى اعتلان حقيقة الشيء واستدعائها لنظر الداذاين حتى يستدخلها في موضع اختباره للكينونة (da). انظر:

Philippe Verstraeten, «Le Sens de l'Ereignis dans Temps et Être», *Les Etudes philosophiques*, no. 1: Heidegger (Janvier-Mars 1986), pp. 113-133; J. Greisch, «Identité et différence dans la pensée de Martin Heidegger: Le Chemin de l'Ereignis», *Revue des Sciences philosophiques et théologiques*, no. 57 (1973), pp. 71-111, et Joseph J. Kockelmans, *On the truth of being: Reflections on Heidegger's later philosophy*, Studies in phenomenology and existential philosophy (Bloomington: Indiana University Press, 1984).

فحوى القول أن هايدغر يروم أن يفصل بين الكينونة والله، وذلك خلافاً لتقليل فكري فلسفياً ودينياً ضارب في التاريخ يرقى إلى أفلاطون. فالكينونة لا يدركها العقل الحساب إدراك التصور والتمثيل والتفهم. وبما أن الكينونة عصية على الإدراك، يجب على الكائن الإنساني أن يأتي إليها من طريق الإيماءات التي تبعث منها في تحلي الكائنات المتنوعة. وحين يختبر هذا الكائن الإنساني ضرباً من ضروب الارتباط ب المقدس إلهي يتسامي على وجوده، فإن مثل هذا الاختبار لا يمكنه أن ينسلك في حيز الأمور القابلة للإبلاغ إلا على قدر ما يراعي حراك الكينونة عينها في انكشافها وانحصارها وإقبالها وإدبارها. فالكينونة هي المسع الأرجح على الإطلاق. وما من سبيل إلى اختبار إنساني، مهما تسام معانه، إلا في نطاق هذا المسع الأرجح. وقد يكون من الأجدى الحديث عن حضور ممكّن للمتسامي والمقدس والإلهي في صميم الرحابة التي تنفرج عنها الكينونة عينها.

أمام هذه الرحابة لا يملك الإنسان إلا أن يخشع في الرهبة، فيمسك ذهنه ولسانه ويعتصم بالخشمة والخفر^(١٦). فالكينونة هي، بحسب هايدغر، في حالة انتقاض وانحصار، فيها الناس يظلون فيها خصوصاً لهم فيقبلون إليها من غير اندھاش أو مساءلة. والحال أن الواجب الفكري يقتضي منهم أن يسترهوا رحابة الكينونة وامتناع هذه الرحابة عن الإدراك. وما إن يرضي الإنسان برعاية انحصار الكينونة عن الأ بصار حتى يتهيأ له أن يختبر بعضاً مما توحيه إليه الغيبة الإلهية التي يعبر عنها هايدغر في صورة الإله الآخر أو الإله التخوم القصوى أو النهايات القصوى. فالله غائب لأن حضوره في الكون والوجود والتاريخ لا يستقيم إلا إذا سلمت الكينونة من سطوة العقل الحساب وطغيان الآلة التقنية المشوهة، فاعتلت اعتلاناً حراً يخالف ما اعتادت الأذهان على تعقله وتصوره في مقولات الميتافيزياء المقيدة. وما دامت الكينونة ليست بخير، فإن الحضور الإلهي ليس بخير. ومن ثم، ينبغي للإنسان أولاً أن يصون لكتينة الكائنات حريتها وكرامتها وحراكها الخاص قبل أن يتطلب فيها بعده التسامي الإلهي.

وانتهاجاً مثل هذا السبيل من الرصانة والتروي، يربط هايدغر تحلي الإله باعتلان الكينونة السليم في الكائنات: «لا يمكن التفكير في ماهية المقدس إلا انطلاقاً من حقيقة الكينونة. ويجب ألا نتفكر في ماهية الألوهة إلا انطلاقاً من ماهية المقدس. ولا يمكن التفكير في ما يعني أن تعني كلمة «الله» والافتتاح عنه إلا بالاستنارة بـ «ماهية الألوهة»^(١٧). من الواضح أن تحلي الله مرتب بتحلي الألوهة، وتحلي الألوهة مرتب بتحلي المقدس، وتحلي المقدس مرتب بتحلي الكينونة. وقد يظن المرء أن هايدغر عاد فربط الكينونة بالله،

(١٦) الرهبة (Erschrecken) والإمساك (Verhaltenheit) والخفر (Scheu) هي الأحوال الثلاث التي ينبغي للتفكير التائب أن ينشدها حين يجرؤ فيبلغ زمن البدء الجديد في اعتلان الكينونة على غير ما ألفته لها الأذهان من انسلاك في قوالب العقل الحساب. انظر:

«Die Grundstimmung des Denkens im anderen Anfang schwingt in den Stimmungen, die entfernt nur sich nennen lassen als das Erschrecken, die Verhaltenheit, die Scheu» in: Martin Heidegger, *Beiträge zur Philosophie: vom Ereignis*, herausgegeben von Friedrich-Wilhelm von Herrmann, Gesamtausgabe. III. Abteilung, Unveröffentlichte Abhandlungen, Vorträge, Gedachte; Bd. 65 (Frankfurt am Main: V. Klostermann, 1989), p. 14.

(١٧) «Erst aus der Wahrheit des Seins lässt sich das Wesen des Heiligen denken. Erst aus dem Wesen des Heiligen ist das Wesen von Gottheit zu denken. Erst im Lichte des Wesens von Gottheit kann gedacht und gesagt werden, was das Wort 'Gott' nennen soll», in: Martin Heidegger, «Brief über den Humanismus», in: Martin Heidegger, *Wegmarken*, [mit Randbemerkungen d. Autors; hrsg. von Friedrich-Wilhelm Herrmann, His Gesamtausgabe; Bd. 9: Abteilung 1, Veröffentlichte Schriften 1914-1970, Unveränd. Text (Frankfurt am Main: Klostermann, 1976)], p. 351.

فيها هو عازم على ربط الله بالكينونة. وهنا موضع الاختلاف والفرادة في مقاربة هайдغر. وهذا وجه من وجوه الاختلاف. أمّا الوجه الآخر، فيظهر في تصور كيفيات مثل هذا الرابط. فربط الكينونة بالله كان ربطة ميتافيزيائياً يتصور الله أصلًا للكينونة وعلة وغاية بحيث تسمى الكينونة صناعة الله لا تحمل في ذاتها سوى ما أراده الله له من قوام ينقضى بانفصال تدبير المشيئة الإلهية. أمّا ربط الله بالكينونة، فيأتي مخالفًا لمقولات الميتافيزياء وتصوراتها ويدل، بحسب هайдغر، على انسلاك الله الحتمي في أفق الكينونة من غير أن تنشأ بينهما علاقة سببية تراتبية.

أبياء الغيبة الإلهية

هي هذه العلاقة الفريدة التي يسعى هайдغر إلى استجلاء سماتها باستدعاءه ثلاثةً من عظماء الفكر الأوروبي المعاصر هُم: هولدرلين وكيركغارد ونيتشه. ولكل واحد منهم طريقه في تلمس إشارات الغيبة الإلهية التي تسم الأزمنة المعاصرة وسماً دامغاً؛ فالشاعر الألماني هولدرلين (١٧٧٠ - ١٨٤٣) أوحى هайдغر مقولته «هروب الآلة». فالآلة، بحسب هولدرلين، انسحبت من التاريخ، وأملأها في أن تعود إليه من بعد أن يستقيم في التاريخ إقبال الناس إلى الكينونة. ولن يستطيع الناس الانخراط في مثل هذه المغامرة إلا حين يفقهون معنى تعرض الكائن الإنساني لاقتدار الكينونة. فهو لدرلين، وهو شاعر الشعراء، أدرك، بحسب هайдغر، أن «الدازain ليس إلا التعرض لاقتدار الكينونة الفائق»^(١٨). ومن جراء هذا التعرض يُضحي الدازain هو «الشاهد للكينونة»^(١٩). وبمقتضى هذه الدعوة السامية، ينبغي للإنسان أن يتوق إلى تأصل جديد للكينونة يستند إلى اقتدار الكينونة عينها في الإفصاح عن رحابة تجلياتها. وما من سبيل آخر للإنسان سوى الاعتماد على مثل هذا الإفصاح حتى يتمنى له أن يقيم الرباط السليم بينه وبين نظرائه الناس وبينه وبين الآلة. فالسلامة في اعتنان الكينونة هو الشرط الأساس لتجلي الآلة في التاريخ: «لا إمكان لعلاقة تناصب تلقي بالكينونة، سواءً أصابت الإنسان أو الآلة، إلا حين تستدعينا الكينونة استدعاء القدر لنا»^(٢٠). فالكينونة هي الأصل الأول الذي تنبثق منه كل الكائنات ابتدأً الوهب العفواني المجاني. وما اعتماد هайдغر بأناشيد هولدرلين إلا للتدليل على أن الشاعر الألماني أدرك عظمة الابتداء الصافي الناشط في الكينونة. وهو ابتداء لا تملك مقولات الميتافيزياء القديمة أن تعبر عنه تعبرًا أميناً. ولذلك أعرض هайдغر عن الميتافيزياء وتجاوزها طلباً لتعبير آخر أشدأمانةً لحركة الوهب الأصلي الناشطة في صميم الكينونة. فكان الإرأيغليس سبيلاً للإفصاح عمّا يعتمل في الأصل من تفور وهاب أصيل^(٢١).

(18) «Dasein ist nichts anderes als die Ausgesetztheit in die Übermacht des Seyns», in: Martin Heidegger, *Hölderlins Hymnen «Germanien» und «Der Rhein»*, herausgegeben von Susanne Ziegler, Gesamtausgabe. II. Abteilung, Vorlesungen 1923-1944 / Martin Heidegger ; Bd. 39, 2nd ed. (Frankfurt am Main: Klostermann, 1989), p. 31.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٦١.

(20) «Erst wenn das Seyn im Sinne von Schicksal uns anspricht, ist auch eine seismäßige Entsprechung, sei es zum Menschen, sei es zu den Göttern, möglich», in: Heidegger, *Hölderlins Hymnen*, p. 174.

(٢١) بيد أن هайдغر لا يلبي أن يقر بياربك شديد حين يجري البحث عن الكيفيات المحسوسة التي تصاحب حركة الانتقال من الأصل إلى الفروع، أي من التفور الأصلي للكينونة إلى الاعتنان المتنوع لل Karnen و الأشياء والموجودات، انظر: Heidegger, *Beiträge zur Philosophie*, p. 485.

وحين يتناول هайдغر قضية الميتافيزياء، لا بد له من أن يستقرئ ما أفرجت عنه عبقرية نيته (٤٤) - ١٨٤٠ (١٩٠٠) في مساءلته للإرث الفكري الديني الأوروبي^(٢٢)؛ فإعلان موت الله في كتابات نيته لا يعني على الإطلاق، في نظر هайдغر، أن نيته قطع جميع الصلات التي تربطه بمنطق الفكر الميتافيزيائي؛ ذلك أن نيته يغلق زمن الميتافيزياء من غير أن يغادر فضاء الميتافيزياء، فهو يعتبر أن الأزمة المعاصرة هي أزمة العدمية التي تعبر عن انعدام القدرة على الإتيان بمثل أو غایيات تسمو على الإنسان فتجعله يتفوق على إنسانيته. ولا جرم أن هذا التصور للعدمية يخالف التصور الذي يناصره هайдغر. فالعدمية هي، بالنسبة إلى هайдغر، الزمن الذي يبسّط أمام الإنسان حين ينسى الجميع الكيّونة ومركزية سؤال الكيّونة. ومع أن نسيان الكيّونة هو من فعل الكيّونة^(٢٣)، بحيث إن عدمية نيته هي من ثمرة فعل الكيّونة المتحجبة، فإن الإقبال المتجدد على الكيّونة لا يجوز أن يتّخذ صورة التفوقية التي ينادي بها نيته عينه. فالإنسان الخارق المتفوق المتتجاوز للإنسان، وهو الكائن الجبار الذي يرسم نيته ملامحه البهية، ليس هو الحل الأنسب للحلول محل الإله الذي غيّبه العقلُ الحساب. والحال أنه لا يجوز على الإطلاق أن يستخرج الإنسان هويته من إرادة الاقتدار التي يتحدث عنها نيته كبديل لـ«الإله الميتافيزيائي الذي سبق فأعلن موته».

غير أن فضل نيته على الفكر الديني أنه حرره من أصنام إلهية تحتها الدين وألصقها بالله. ومع أن هайдغر لا يوافق نيته على إحلال الإنسان المتفوق محل الإله المدفون، فهو يستلهمه في مساءلته لمثل هذا الإنسان الساعي إلى اختبار آخر لله: «ويبيقي علينا أن نسأل هل يجد الإنسان المتفوق الباحث عن الله ما يبحث عنه وهل يستطيع، على وجه الإطلاق، أن يجد ما يبحث عنه. وإن سؤالنا يذهب إلى أبعد من ذلك ليعرف هل هذا الباحث عن الله يستطيع، على وجه الإطلاق، أن ينتقل ليقيم في المدى الذي يُنشئه فعل العثور الممكّن، وبالتالي فعل البحث الوحيد الملائم. وينبغي لهذا المدى أن يكون بالنسبة إلى فعل البحث عن الله مدى الألوهية الذي فيه يبسّط الإلهي. وينبغي لهذا المدى قبل كل شيء أن يعين فعل البحث وأن يعين حتى فعل عدم القدرة على العثور»^(٢٤). ويوضح من هذا النص أن الاستلهام يأتي في صيغة الإصرار على خطورة المسألة الإلهية وعسر البلوغ إلى الفهم الإنساني للغيبة الإلهية. فالسؤال عن الله ينبغي أن يتضمن اعتراضاً بعجز الإنسان عن حسم المسألة كلها؛ إذ إن منطق الإجابة في هذه القضية هو غير منطق الإجابة في القضايا الأخرى. ولذلك أكب هайдغر يتمّل في فعل البحث وفعل العجز عن العثور. وهم فعلان يهيازان

(٢٢) يُعترف هайдغر أن نيته هو الفيلسوف الأقرب إليه على الإطلاق، وهو في الوقت عينه الفيلسوف الذي ابتعد كل الابتعاد عن مسألة الكيّونة: «التجرؤ على مناقشة نيته كالأقرب إلى، ومع ذلك الاعتراف بأنه في المقام الأشرف ابتعداً من سؤال الكيّونة». انظر: «Mit Nietzsche die Auseinandersetzung wagen als dem Nächsten und doch erkennen, daß er der Seinsfrage am fernsten steht», in: Heidegger, *Beiträge zur Philosophie*, p. 176.

(٢٣) «إن التخلّي الذي تُحدّثه الكيّونة هو أصل نسيان الكيّونة»
«Die Seinsverlassenheit ist der Grund der Seinsvergessenheit», in: Heidegger, *Beiträge zur Philosophie*, p. 114.

(٢٤) «Uns bleibt zu fragen, ob der Gott-suchende Übermensch das findet und überhaupt finden kann, was er sucht. Unsere Frage fragt noch weiter hinaus, ob dieser Gottsucher sich überhaupt in die Dimension des möglichen Fundes und somit des allein gemäßen Suchens bringt und zu bringen vermag. Diese Dimension müßte für ein Gott-Suchen diejenige der Gottheit sein, in der Gotthaftes west. Diese Dimension müßte allererst das Suchen, sogar das Nichtfindenkönnen be-stimmen», in: Martin Heidegger, *Metaphysik und Nihilismus*, herausgegeben von Hans-Joachim Friedrich, Gesamtausgabe. III. Abteilung, Unveröffentlichte Abhandlungen, Vorträge, Gedacht/ Martin Heidegger; Bd. 67 (Frankfurt am Main: Vittorio Klostermann, 1999), p. 193.

فعل الورع والخفر والتقوى أمام الغيبة الإلهية. وحده مثل هذا الفعل الإنساني يمهد السبيل إلى اكتشاف البُعد المقدس في امتداد الوجود الإنساني الأصيل المنصب بكلّيته على مسألة الكينونة وجعل الكينونة عينها تسائل الإنسان وتستنهضه وتدفعه إلى الانسلاك في مداها الربّ. وهذا كله استخرجه هайдغر من معاييره لقوله موت الله في فكر نيشه، وهي المقوله التي تضع نيشه في مقام الباحث الجدي عن الله. غير أنه بحث لا يليق به أن يخضع لمفاهيم الميتافيزياء الغربية لأنّه يومئذ من بعيد إلى الاستهلال الفكري المُقبل الصاحب للصحوة الإنسانية الراعية لسمو الكينونة في سر انجلاثها وانحاجابها.

في هذا الموضع عينه ينكشف الأثر العميق الذي تركه كيركغارد (١٨٠٥ - ١٨٥٥) في فكر هайдغر^(٢٥). ومع أن هайдغر لم يخصص للفيلسوف الدهناري كي بحثاً مستفيضاً، فإنه عاين فيه استنهاضاً لفهم يلائم فعل القرار الذي يحكم استهلال الزمن الجديد، زمن اعتلان الكينونة تحت أعراض انحاجابها. فالاستهلال الفكري المُقبل لا ينتق من فعل الإرادة البشرية البحثة، بل هو قرار مصيري يصدر رأساً من حركة الكينونة الحرة، ولكان الكينونة، في عمق قوامها، هي التي تنحجب طوعاً فتخلي السبيل للإنسان الحسّاب المهيمن على الكائنات والأشياء وال موجودات، وهي التي تنكشف طوعاً حين ترسم أن في انحاجابها شيئاً من كشف لرحابة غناها الأصيل. ولا بد هنا من التذكير بأن هайдغر، من بعد أن انتقل إلى المرحلة الثانية من فهمه لسر الكينونة، أخذ يُلْبس اللفظة الألمانية *Sein* ضمة من الصيغة الغربية صوّناً لها من استقطابات العقل الميتافيزيائي لها، وتحريراً لها من موروث الفهم السائد في الفلسفة الغربية. فإذا بالكينونة في صياغتها الألمانية المألوفة تضحي في رسم جديد تارةً على هذا الشكل (*Seyn*)، وتارةً أخرى مشطوباً فوقها بخط ينبع عن رغبة قوية في اعتاقها من كل سطوة ذهنية ممكنة. وقد تكون عبارة «الكون» هي التعريب الملائم للرسم الجديد. ومن ثم، فالقرار الوجودي الذي كان كيركغارد يتتكلّ عليه ليعسف الإنسان على حسم أمره والالتزام الإيماني الواضح إنما يُضحي في فكر هайдغر قرار الكينونة عينها التي تحسم أمرها فتنحجب في زمن التقنية المدamaة، ولا تثبت أن تومئ من بعيد إلى الإنسان لكي تستحوذه على الإصغاء إصغاءً أشد صفاءً لنداءاتها المبثوثة في الأشياء والكلمات. وقد يعني هذا كله أن تاريخ البشرية ليس هو تاريخ الإرادات الفردية والجماعية التي تظن أنها تقibus على مسرى الحوادث، بل هو تاريخ الكينونة عينها تُقبل إلى الكائنات وتُتّدبر عنها، وتعتلن في الأشياء وتتغور فيها، وتبسط في الكلمات وتتضوّي فيها. وما الأنظومات الفكرية التي أنشأها فلاسفة منذ زمان الإغريق سوى التعبير عن ضروب شتى من إطاعة أوامر الكينونة، أو قل هي ضروب «القرار الملائم للكون»^(٢٦)، أي للكينونة التي تستنهض الإنسان بحرية الآمرة الناهية في زمن الاستهلال الجديد.

من بين أن مقاربة هайдغر للروم تحرير الله من الصور الالهوية والفلسفية التي علقت به في غضون التاريخ. وما استدعاء صورة المقدس إلا للتذكير بأن الدنو من الله لا يجوز إلا في كثير من الرعدة والمخافة والهبة والورع. فالكينونة التي تُربِك المنطق في رحابة غناها وبساطة قوامها وعمق مداها وتنوع حراكها هي الطريق إلى المقدس. والمقدس الذي ينشأ من استهباب الإنسان لعظمة الكينونة هو الطريق إلى الألوهه. والألوهه التي تُقصّح عما يختزنه المقدس من طاقة عظيمة على الإشارة البعيدة المدى هي الطريق

(٢٥) جان غريش من الباحثين الذين يؤيدون تأثير هайдغر بفكر كيركغارد المستنهض للقرار الوجودي. غير أن مثل هذا القرار لا يأتي، بحسب هайдغر، من عزم الإنسان، بل من مشيئة الكينونة عينها. انظر:

Greisch, *Le Buisson ardent et les lumières de la raison*, pp. 651-653.

(٢٦) «Entscheidung für das Sein», in: Heidegger, *Beiträge zur Philosophie*, p. 91.

إلى الله. ييد أن هذه الطرق جموعها ليست آمنة ولا سالكة لأن موقع الانطلاق الأول هو انغمار الكينونة بظلال الغموض الواضح وتعثر الإنسان في البلوغ إلى عمق معانٍ الكينونة ومقداصها. وللتعبير عن مثل هذا الإرباك، طفق هайдغر يتحدث عن ضياع آثار المقدس في الوجود: «المقدس، بما هو أثر للألوهة، لا يُفقد فحسب، بل إن آثار هذا الأثر الدارس أو شكت هي أيضًا على التلاشي»^(٢٧). حتى المقدس الذي هو الوسيط بين الكينونة والألوهة دخل في طور الغيبة والاختفاء، والسبب في ذلك كله أن العالم أسلم كيانه إلى التقنية وأصبح خاضعًا لمقتضياتها. وفي هذا السياق يتجلّى مقام الشعراء في معاينة واقع الغيبة الإلهية، غيبة المقدس^(٢٨) وغيبة الألوهة وغيبة الله في زمن الهمينة التقنية الشاملة. فالتأمل في الغيبة هو، في وجه من الوجوه، تأمل في الحضرة وقد توارت آثارها والتبتست معاملها. ومن ثم، فإن اختبار الخلاص المفقود هو أيضًا شرط من شروط الاعتلان الإلهي الم قبل. فإذا بالمرى الشرطي التدرجى يتعزز باستضافة دائرة خامسة هي دائرة اختبار الخلاص المفقود. وهي دائرة توسيط بين اختبار الكينونة وختبار المقدس بحيث لا يستطيع الإنسان أن يختبر المقدس ما لم يختبر الخلاص المفقود^(٢٩).

الإله الآخر في إطلالته المقبلة

رأس الكلام في هذا كله أن الإله الآخر أو الإله الإلهي أو الإله النهايات القصوى غداً الاسم الجديد لله في كتابات هайдغر المتأخرة؛ فالإله الذي يتحدث عنه هайдغر يظل بعيداً بالرغم من ظهورِ ملتبس للمقدس في زمن التقنية القاهرة^(٣٠). ولا بد من اختبار الحزن المقدس في هذا الزمن الرديء قبل السؤال عن هذا الإله الإلهي. غير أن اختبار الغيبة الإلهية لا يستتبع الانقضاض واليأس والاستسلام، بل يستتلي ترقب انبلاج الآفاق الجديدة التي منها ستتبين علامات الاستهلال الموعود. أمّا الاستماتة الطقوسية في استجلاب الحضرة الإلهية، فلن تُجدي نفعاً في المؤسسة الدينية وهيكل العبادة وأنظومة التحرى الميتافيزيائي؛ فحين توارى الآلة، لا قدرة للإنسان على استرجاعها بالقوة: «ذلك كله يظل مجرد سعي ثقافي وقد تنوّعت أشكاله، ولا يضحي ما ينبغي أن يكون عليه ما دامت الآلة هاربة. وحين يموت الإله، لا تقوم قيمة للصورة وللهيكل بفضل جوائز التسابق. وهذا الإله لن يأتي به الكهنة ما لم تضرب الآلة بصواعقها. وهي لن تضرب ما لم تجد أرضَ المهد وما لم يجد شعبًّا هذه الأرض كله موضعًا لها في نطاق العاصفة. إلا أن هذا الشعب لن يدخل أبداً في نطاق العاصفة ما دام أنه، بكليته، لم يستدخل في وجوده

(٢٧) «Nicht nur das Heilige geht als die Spur zur Gottheit verloren, sondern sogar die Spuren zu dieser verlorenen Spur sind beinahe ausgelöscht» in: Martin Heidegger, *Holzwege*, hrsg. von Friedrich-Wilhelm von Herrmann, His Gesamtausgabe: Abt. 1, Veröffentlichte Schriften 1914-1970; Bd. 5 (Frankfurt am Main: Klostermann, 1977), p. 272.

(٢٨) رسالة الشعراء، بحسب هайдغر، أن «يختبروا غياب الخلاص بما هو خلاص». انظر: Heidegger, *Holzwege*, p. 319.

ولا شك في أن مثل هذا الاختبار هو الذي يؤهلهم للانفتاح على آفاق المقدس.

(٢٩) حين يتحدث هайдغر عن حاجة الفكر إلى الشعر والشعراء لا يتورع عن ربط مصير المقدس برسالة الشعراء الذين يعاينون في الغيبة حضوراً وفي فقد كسباً وفي الامتناع تأييضاً:

«Erst im weitesten Umkreis des Heiligen vermag Heiliges zu erscheinen. Dichter von der Art jener Wagenderen sind, weil sie das Heillose als ein solches erfahren, unterwegs auf der Spur des Heiligen», in: Heidegger, *Holzwege*, pp. 319 et 384.

(٣٠) «صحيح أن المقدس يظهر. ييد أن الإله يظل بعيداً»:

«Das Heilige zwar erscheint. Der Gott aber bleibt fern», in: Martin Heidegger, *Erläuterungen zu Hölderlins Dichtung*, 4th ed. (Frankfurt am Main: Klostermann, 1981), p. 27.

التاريخي، بما هو عليه، الضرورة الأشد إيغالاً فيه، ضرورة موت الآلة يختبرها اختباراً أساسياً ويتحملها تحملًا طويلاً المدى»^(٣١). ومعنى هذا الوصف الشعري أن الإنسان بات يتعمّن عليه أن يضطُل بمسوؤلية الغيبة الإلهية التي يعبر عنها غياب الآلة. وما من سبيل آخر إلى التفلت من هذا الواقع الذي تفرضه انغلاقات الميتافيزياء وإرباكات الأنظومات اللاهوتية؛ فالسبيل إلى اختبار الحضور الإلهي في إقبال الآلة إلى الناس أغلقه الأنظومة الميتافيزيائية التي تحبس الكينونة في دائرة الكائنات وتدعى القبض عليها في نطاق مقولات المنطق الحاصرة.

ولا بد في هذا السياق من الإشارة إلى أن نسيان الكينونة الذي يعبر عن تخلي الكينونة عنها وإعراضها عن التأني العفوい هو الذي يُفضي إلى الغيبة الإلهية؛ فالآلة لا معنى لها إلا بارتباطها باختبارات الناس القصوى. واختبارات الناس القصوى لا معنى لها إلا بانفتاحها على الالتماعات المتجسدة من السماء. والالتماعات هذه لا معنى لها إلا على قدر ما يصون الناس حرمة الأرض. فالأرض والطبيعة والكون الأرجح محمرة لا يحل انتهاكها على نحو ما ترتكبه التقنية المعاصرة القاهرة. ومن ثم، ينبغي لهذه الكتل جميعها أن تنسلك في مؤتلف رباعي هو المتربيع الأصلي (das Geviert) الذي يحمل في طياته شروط التجلي السليم للإله الإلهي. وعلى قدر ما تستقيم العلاقة في هذا المتربيع الأصلي بين الناس المائتين والآلة والأرض والسماء، يتهيأ للإله الغائب أن يعود من غيبته وينكشف في غير ما ألفه الناس من اعتلالات الله في الأنظومة الدينية الأفلاطونية الأصل المسيحية الصياغة. ييد أن الزمان الحالي ليس زمن الإعداد للعودة الإلهية؛ ذلك أن الناس ما تعودوا الإقبال الهنفي إلى الكينونة في عمق غناها. فهو ما انفكوا يُصررون على إدراك الكينونة من موقع المبادرة الإنسانية العقلية المحسنة، في حين أن الكينونة تروم أن تبادر هي إلى ملاقاة الإنسان ومناداته واستدعائه واستئنافه: «غير أن الانعطاف اليوم هو ضروري (...)، وهو الانعطاف الذي بمقتضاه لا يكون أصل الكائن في الإنسان، بل يكون أصل الكائن الإنسان في الكينونة (الكون)»^(٣٢). ولذلك، قال هайдغر في أشد كتبه ابتعاداً عن أنظومة العقل الحساب، عنيت به كتاب الإسهامات، قال بأن الزمان ما برح عاجزاً عن «نظم النظمة الحرة لحقيقة الكينونة (الكون) انطلاقاً من الكينونة (الكون) عينها»^(٣٣). فالإنسان المعاصر ينبغي له أن يبحث في اليوم الحاضر عن قول رزين يلائم حقيقة الكينونة (الكون) في اعتلامها الحر للإنسان.

(31) «All das bleibt nur ein veränderter Kulturbetrieb und wird nie, was es sein soll, solange die Götter geflohen sind. Es wird nie Bild und Tempel durch Preisausschreiben, wenn der Gott tot ist. Es werden keine Priester, wenn die Blitze der Götter nicht schlagen, und sie schlagen nicht, wenn nicht die heimatliche Erde und ihr ganzes Volk als dieses in den Gewitterraum zu stehen kommt. Es wird aber nie in diesem Gewitterraum einrücken, solange es nicht als Ganzes in seinem geschichtlichen Dasein als solchem die innerste Not des Todes der Götter zur wesentlichen Erfahrung und zu einem langen Ausdauern bringt», in: Heidegger, *Hölderlins Hymnen*, p. 100.

(32) «Jetzt aber ist not die große Umkehrung [...] in der nicht das Seiende vom Menschen her, sondern das Menschsein aus dem Seyn gegründet wird», in: Heidegger, *Beiträge zur Philosophie*, p. 184.

(33) يرد هذا النص في سياق حديث هайдغر عن المقاربة الجديدة للكينونة (الكون) انطلاقاً من حركة التأني العفوい الذي يتيح للإنسان أن يختبر انكشاف الكينونة من غير أن يأسرها هو في إدراكته العقلية المحسنة. ومن المفيد هنا ذكر النص الألماني في جميع عناصره:

«Somit vermögen die ‘Beiträge’, obzwar sie schon und nur vom Wesen des Seyns, d. i. vom ‘Er-eignis’, sagen, noch nicht die freie Fuge der Wahrheit des Seyns aus diesem selbst zu fügen», in: Heidegger, *Beiträge zur Philosophie*, p. 4.

وعندئذ يأتي زمن التأله الملائم لإله الآلهة^(٣٤). وما يدل عليه هذا التأله أن إله النهايات القصوى يكتسب صفة الإلهية الحقيقية التي تختلف ما انعقدت عليه الأنظمة اللاهوتية المسيحية من تصور الله في هيئة العلة الأولى والكائن الأسمى.

ويتضح مما سبق أن اعتلان الإله الإلهي ينبغي أن يجري الإعداد له إعداداً لافقاً بمكانته الفريدة؛ ذلك أن خصائص هذا الإله لا تكتسب مما اعتقد العقل الميتافيزيائي اللاهوتي، بل من مجرى التأله الناشط في زمن التهيئة الملائم لاعتalan الألوهه. وحده مثل هذا التأله (Götterung) يضع الألوهه (Gottschafft) في مقامها الصحيح^(٣٥)، بيد أن هذا التأله له مدلول خاص في عرف هайдغر، فهو، من وجهه، يعني تحرير الإشارات المتباينة عن الإله الإلهي من أثقال التصورات الميتافيزيائية اللاهوتية، وهو، من وجه آخر، يعني سلوك الألوهه في حقل الاختبار الأصلي الذي فيه تتجل حقيرة الكينونة في هيئة جديدة (الكون) لم يألها الناس إلى اليوم. فإذا استطاع الإنسان الدازلين أن يختبر اختباراً كلي الجدّة ما تنطوي عليه هذه الكينونة المقبلة إليه من قوام مذهل في غناه ومربيك في بساطته، تستنى له أن يدخل في نطاق الكشف الجديد الذي يبسّطه الله في ألوهته الفذة. وما لا شك فيه أن ألوهه الإله الإلهي عادت لا تحمل فيها معانى اللامتناهي واللامحدود واللامشروط، على نحو ما تصورته فيها مقولات الأنظمة الأفلاطونية على سبيل المثال.

واماً أفضح الأقوال التي ساقها هайдغر في صورة الإله الإلهي، فهي أنه جعل اعتلانه ممكناً في دائرة الإرأيغليس، أي في حركة التألي الغفوّي للكينونة في حلها وترحالها، وفي حضورها وغيابها، وفي انبساطها وانقباضها: «في انبساط ذات حقيقة الكينونة (الكون)، في الإرأيغليس وبما هو إرأيغليس، يتوارى الإله الأخير»^(٣٦). هذا التواري هو التعبير الأفضح عن الغيبة الإلهية التي لا تعني الانعدام المطلق لله. فالله، ولئن احتجب، لا يعني يعرّج على الوجود وعلى الناس وعلى التاريخ. غير أن الناس لا يفهّمون مثل هذا المعراج. ولذلك ما انفك هайдغر يبحث الإنسان على التحليل بصفات «الباحث» و«الراعي» و«الساهر». فالإنسان الدازلين هو، بحسب كتابات هайдغر الأخيرة، «الساهر على سكينة مرور الإله الأخير»^(٣٧). وقبل أن يسهر على هذه السكينة، ينبغي له أن يرعى الكينونة عينها رعاية الاضطلاع النبّي بالرسائل والإشارات والإيحاءات التي تحملها إليه، ولا سيما في انجحاجها عنه. وما تفترضه هذه الرعاية أن الإنسان ما عاد يتصرف بصفة الحيوان العاقل، بل بصفة المقتبل لاعتلالات الكينونة وانحجاجاتها؛ إنه مستودع أسرار الكينونة، لا المستبني لقواعد الكون والطبيعة والتاريخ والمheimen المطلق عليها. وبما أن مقاربة ذات الإنسان لا تجوز إلا «فساريّاً» (hermeneutisch)، أي انطلاقاً من مشروع الكينونة المقبلة إليه، فإن الإنسان لا يبلغ عمق حقيقته إلا على قدر ما يشرع كيانه أمام الكينونة المغرقة في اختلافها وفرادتها وغربتها. لذلك، لا يكون الإنسان

(٣٤) انظر: Heidegger, *Beiträge zur Philosophie* p. 4.

(٣٥) انظر:

Martin Heidegger, *Besinnung*, Gesamtausgabe; Bd. 66 (Frankfurt am Main: V. Klostermann, 1997), p. 98.

(36) «In der Wesung der Wahrheit des Seyns, im Ereignis und als Ereignis, verbirgt sich der letzte Gott», in: Heidegger, *Beiträge zur Philosophie*, p. 24.

(37) «Wächter der Stille des Vorbeigangs des letzten Gottes», in: Heidegger, *Beiträge zur Philosophie*, p. 23.

إنساناً إلا على قدر ما يلزم الكينونة ويلتقي الإله الآخر، فهو حارس الكينونة وراعيها، والساهر على معراج الإله الآخر.

ولا عجب، من ثم، أن يأتي هذا الإله الآخر في هيئة المنبيء عن استهلال جديد للألوهـة. فالآلة التي اختبر الناس حضورها في غضون التاريخ لا تُعد ولا تُحصـى. ولكنها، على كثرتها وتتنوع إيماءاتها، لا تملك في ذاتها أن تهـيـئ مجيء الإله الآخر، إذ إن هذا الإله ليس هو نهاية التاريخ، بل البداية الأقرب إلى الأصول الأولى^(٣٨). وما من سبيل إليه إلا بالإصغاء إلى إيماءات الكينونة المقلبة إلينا من انحصارها الأقصى. وعليه، فإن مقاربة هайдغر لمثل هذا الإله الآخر، إنه النهايات القصوى، ليست ضرباً من ضروب علم اللاهوت، بل هي أشبه بأسخاتولوجيا الكينونة^(٣٩) تروم التفكـر في مصائر الكينونة وفي تدابيرها المحتمـة للإنسان. غير أن مثل هذا التفكـر لا يجوز إلا استناداً إلى حركة الإرـأيـنيـس التي تصون الكينونة من التملك والتصرف والاستبداد. وهذا كله من خصائص الأنظمة الأنطـلـوـجـيـة التي لا يبنيـهـاـ هـاـيدـغـرـ يـناـهـضـهاـ وـيـفـتـضـحـ التـواـءـتهاـ. وـمـعـ أـنـهـ يـحـذـرـ الجـمـيعـ مـنـ إـقـحـامـ اـسـمـ اللهـ فـيـ مـعـرـكـةـ التـفـكـرـ الفلـسـفـيـ، فـإـنـهـ لاـ يـلـبـثـ أـنـ يـتـنـاـولـ اـسـمـ اللهـ فـيـ مـقـارـبـةـ الـفـكـرـ الـأـنـطـلـوـجـيـ الـجـدـيدـ الـذـيـ يـتـجـاـزـ الـمـيـافـيـزـيـاءـ، وـهـوـ الـفـكـرـ الـذـيـ يـعـرـضـ عـمـدـاـ عـنـ تـصـورـ الـكـيـنـوـنـةـ فـيـ ثـبـاتـ حـضـورـهاـ وـدـوـامـ قـابـلـيـتـهاـ لـلاـسـتـدـعـاءـ وـالـاسـتـقـدـامـ وـالـاسـتـجـلـابـ. وـلـذـكـ يـحـمـلـ هـاـيدـغـرـ الـفـكـرـ الـجـدـيدـ الـمـبـنـيـ عـلـىـ حـرـكـةـ الإـرـأـيـنـيـسـ مـسـؤـولـيـةـ تـحرـيرـ اللهـ مـنـ مـقـولـاتـ الـعـلـةـ الـأـوـلـىـ وـالـمـطـلـقـ وـالـخـالـقـ وـالـدـيـانـ، وـهـيـ مـقـولـاتـ تـشـبـهـ شـبـهـاـ كـبـيـراـ مـاـ تـبـنـيـهـ عـقـولـ النـاسـ مـنـ مـثـلـ عـلـىـ تـخـضـعـ فـيـ مـصـدـرـهـاـ الـأـوـلـىـ لـنـطـقـ الـمـوـجـوـدـاتـ وـالـكـائـنـاتـ. وـالـحـالـ أـنـ فـكـرـ الـكـيـنـوـنـةـ الـجـدـيدـ (ـالـكـوـانـ)ـ يـقـضـيـ مـنـ إـلـيـانـ أـنـ يـبـحـثـ فـيـ اللهـ عـمـاـ هـوـ أـشـدـ إـظـهـارـاـ لـأـلـوـهـةـ اللهـ^(٤٠).

وكما أنه لا يجوز للمرء أن يخلط بين الله والكينونة، كذلك لا يجوز له أن يخلط بين الله والإرـأـيـنـيـسـ؛ ذلك أن «الـإـلـهـ الـأـخـيـرـ لـيـسـ هـوـ الإـرـأـيـنـيـسـ بـعـيـنـهـ»^(٤١)، فالـإـرـأـيـنـيـسـ هوـ التـعـبـيرـ عنـ حـرـكـةـ بـلـوغـ الـكـيـنـوـنـةـ إـلـىـ قـوـامـهـ الـحـقـ مـنـ خـلـالـ اـنـغـلـاحـاـ فـيـ الـكـائـنـاتـ وـامـتـنـاعـهـاـ عـنـ الـكـائـنـاتـ. أـمـاـ الـعـلـاقـةـ النـاشـطـةـ بـيـنـ اللهـ وـالـكـيـنـوـنـةـ، فـيـنـبـغـيـ أـنـ يـتـصـورـهـاـ الـفـكـرـ الـجـدـيدـ بـمـعـزـلـ عـنـ مـقـولـاتـ التـسـامـيـ الـمـيـافـيـزـيـائـيـةـ؛ فـالـلـهـ لـيـسـ مـتـسـامـيـاـ عـلـىـ الـكـيـنـوـنـةـ، وـلـاـ الـكـيـنـوـنـةـ مـتـسـامـيـةـ عـلـىـ اللهـ. وـلـاـ يـمـكـنـ لـقـوـلـةـ التـسـامـيـ، فـيـ سـيـاقـ فـكـرـ الـكـيـنـوـنـةـ الـجـدـيدـ، أـنـ تـعـبـرـ عـنـ حـقـيـقـةـ الـعـلـاقـةـ الـتـيـ يـعـاـيـنـهـاـ هـاـيدـغـرـ نـاشـطـةـ بـيـنـ اللهـ وـالـكـيـنـوـنـةـ. وـلـذـكـ كـانـتـ مـقـولـةـ الـفـسـحةـ الـبـيـنـيـةـ أـوـ الـبـيـنـيـةـ هـيـ الـمـقـولـةـ الـتـيـ تـلـائـمـ مـاـ تـنـشـئـ حـرـكـةـ الإـرـأـيـنـيـسـ مـنـ اـرـتـبـاطـ بـيـنـ اللهـ وـالـكـيـنـوـنـةـ. وـهـذـهـ الـبـيـنـيـةـ هـيـ الـتـيـ تـسـيـحـ التـلـاقـيـ الـمـشـمـرـ بـيـنـ الـآـلـهـةـ وـالـنـاسـ الـمـائـتـينـ وـالـأـرـضـ وـالـسـيـاءـ. وـبـحـسـبـ مـاـ تـقـضـيـهـ هـذـهـ الـفـسـحةـ الـبـيـنـيـةـ، يـمـكـنـ المرـءـ أـنـ يـفـهـمـ مـاـ يـعـنـيهـ هـاـيدـغـرـ حـينـ يـفـاجـئـ جـمـيعـ بـقـولـتـهـ: «إـنـ إـلـهـ الـأـقـصـىـ يـحـتـاجـ إـلـىـ الـكـيـنـوـنـةـ (ـالـكـوـانـ)ـ»^(٤٢). يـدـيـ أـنـ هـذـهـ الـحـاجـةـ لـيـسـ حـاجـةـ الشـرـطـ الـمـنشـئـ لـلـوـجـوـدـ، بلـ هـيـ حـاجـةـ الـاـرـتـبـاطـ الـعـفـويـ غـيرـ الـمـقـرـنـ بـضـرـورـاتـ الـعـلـةـ وـالـمـعـلـوـلـ. فـالـإـلـهـ الـأـخـيـرـ يـرـغـبـ فـيـ مـلـاقـةـ إـلـيـانـ فـيـ نـطـاقـ الـاـخـتـبـارـ الـأـصـيـلـ الـذـيـ يـيـشـطـ فـيـ مـعـرـكـةـ التـرـبـعـ الـحـيـويـ حـيـثـ الـآـلـهـةـ وـالـنـاسـ الـمـائـتـينـ وـالـأـرـضـ وـالـسـيـاءـ مـوـضـعـ سـيـنيـ مـنـ مـوـاضـعـ اـنـبـاطـ الـكـيـنـوـنـةـ فـيـ بـهـاءـ حـرـيـتـهـاـ وـعـفـوـيـةـ إـقـبـالـهـاـ وـعـظـمـةـ تـحـفـظـهـاـ. وـمـمـاـ لـاـ شـكـ فـيـهـ أـنـ الـمـلـاقـةـ لـاـ

(٣٨) انظر: المصدر نفسه، ص ٤١٦.

(٣٩) انظر: Heidegger, *Holzwege*, p. 327.

(٤٠) انظر: Heidegger, *Beiträge zur Philosophie*, p. 438.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٤٠٩.

(42) «Der äußerste Gott bedarf des Seyns», in: Heidegger, *Beiträge zur Philosophie*, p. 408.

تتخد على الإطلاق شكل المكوث والتثبت والديمومة القابلة للقبض والاستنفاد؛ فالله لا يلاقي الإنسان إلا في هيئة الزيارة اللمحة تترك في الكيان أثراً وفي الوجود التماعاً وفي الحياة اهتزازاً.

ومع ذلك، فإن زيارة الإله الأخير أو معراجه المباغت لا يمكن أن يحدث إلا في نطاق اختبار المحدودية المطلقة للكينونة وللκαταινάτ. فإله النهايات القصوى لا يملك في ذاته أي ضرب من ضروب التعالي والتسامي والتفوق، وهو لا يأتي الإنسان الدازين ويومئ إليه إلا في داخل الحدود التي ما انفك مرتسمة في آفاق الوجود الإنساني: « هنا تكشف محدودية الكينونة الأشد التصاقاً بها، تكشف في تلویحة الإله الأخير »^(٤٣). فالمحدودية ثلاثة الأبعاد في فكر هайдغر؛ فهي أولاً محدودية الكينونة التي لا قدرة لها على تجاوز مداها إلى ما يتسامى عليها. فالكينونة، في محدوديتها، هي، على وجه المفارقة، كل شيء ممكن في الوجود. وما من حيز في الكون لا تستغرقه الكينونة. فليس ما هو أعلى من الكينونة أو أدنى منها. إنها الكل في الكل. وهي ثانياً محدودية الإنسان الدازين المنفتح على مدى الكينونة الأرحب. فالإنسان لا يجوز فيه أن يتصور له عالماً فوقاً لا يخضع لحكم الكينونة واستغراقها له. وهي ثالثاً محدودية الإرأيغليس في حركة إقبال الكائنات إلى كينونتها وإقبال الكينونة إلى ذاتها وتلاقي الناس المائتين والآلهة والأرض والسماء. فالحركة محدودة بحدود إقباله التاريخي على الأصلية الذاتية. وقد تذكر هذه الأبعاد الثلاثة بالعمل التوحيدى الذي أنجزه أرسطو حين أعرض عن قسمة الوجود الأفلاطونى إلى عالمين فوقى وتحتى واكتفى بوحدة العالم القديم، من غير أن يتغاضى عن موقع فريد في صميم هذا العالم نسبة إلى الكائن الأول أو المحرك الأول.

استقبال الكينونة في غريتها تمهد لعبور الإله الأخير

يتضح من هذا كله أن الإله الأخير، أو الإله الإلهي أو إله النهايات القصوى، لا يشبه في أي وجه من الوجوه إله الأديان التوحيدية. إنه الإله الذي يتمي في وجه من الوجه إلى محدودية الكينونة ومحدودية الإنسان ومحدودية الإرأيغليس. ولذلك لا تتجلى هوية هذا الإله الأخير إلا على قدر ما يتأمل المرء في هوية الإرأيغليس الذي يُفصح عن حركة الإقبال إلى الأصلية، إقبال الكينونة والكائنات والإنسان إلى عمق التتحقق الذاتي المنشود. بيد أن هذا الإقبال لا يُفضي في خاتمه إلى اعتلان الله. فالإله الهايدغرى يعرّج على الإنسان من غير إنذار أو است TZدان؛ يعرّج عليه وهو في حالة الإقبال المستمرة إلى انبساطات الكينونة المتقلبة. وليس لهذا الإله من استقرار في التاريخ لأنه إله المعراج والعبور والتلویح. وليس فيه أي شكل من أشكال الديمومة والثبات والتأبد. وهذه كلها من خصائص الألوهية العلوية الميتافيزيائية.

وفي جميع الأحوال، يبحث هайдغر الفكر الجديد على صون حرية الله في اعتلالاته العابرة. فالله هو صاحب المبادرة في الاعتلان. ولا يمكن أن يعتلن إلا إذا تهيأت له أسباب الانكشاف السليم لحقيقة الكينونة. وكما

(43) «Hier enthüllt sich die innerste Endlichkeit des Seyns: im Wink des letzten Gottes», in: Heidegger, *Beiträge zur Philosophie*, p. 410.

أن الإنسان ينبغي له أن يرعى اكتشاف الكينونة وانحاجها من غير أن يحصرها في قوالب الإمساك العقلي، كذلك ينبغي له أن يصون إقبالات الله إليه في حرية معراجه. ومع أن هايدغر يُحجم عمداً عن القول الحاسم في شأن تعدد الآلة في المربع الأصلي وفي شأن وحدة الإله في إطلالاته العابرة، فإنه يصر إصراراً عظيماً على اعتقاد الإله الأخير من جميع أصناف الوصف التي ما انفكَت الأنظمomas الدينية تعتمدتها في مقاربتها الميتافيزيائية للله: «وحданية الله وحدانية مطلقة تقع في خارج دائرة التعيين الحسابي الذي تشير إليه عناوين التوحيد والخلووية والإلحاد. فالمذهب التوحيدى وكل المذاهب المشتقة من الإلهيات ما قامت إلا انطلاقاً من اللاهوت الدفاعي اليهودي - المسيحي، وهو اللاهوت الذي يعتمد على الميتافيزياء كفرضية فكرية له. إلا أن موت هذا الإله أسقط جميع المذاهب المشتقة من الإلهيات. أما تعدد الآلة، فإنه لا يخضع للعدد، بل للغنى الذاتي اللصيق بالأعماق والأغوار المستقرة في موضع الحدث الآني الذي فيه تلتمع وتنحجب تلوية الإله الأخير»^(٤٤). لا ريب في أن مثل هذا القول يُنبئ عن تحول عظيم ينبغي للفكر الجديد أن يختبره إذا ما رام التماشى مع المقتضيات المعرفية التي تستليلها اختبارات عبور الإله الأخير. فالأنظمomas الدينية اعتادت أن تتناول الله استناداً إلى مقولات الميتافيزياء الإغريقية، وفي مقدمتها مقوله الحضور الدائم الثابت المطرد والبنية السببية للكائنات والقصد الغائي الآخرى للوجود. والحال أن فكر الكينونة (الكون) الجديد يحتم على الإنسان أن يتذكر لغة فذة تعينه على الاستعداد استعداداً يليق بكرامة الإله الأخير الذي يسر على الناس ملاقاته ما داموا يعجزون عن اختبار بساطة الكينونة (الكون) في رحابة تفتحاتها ومغاري تشنجاتها. فالأجلد بهم أن يدركون أن معاينة الإله الأخير في معراجه لا تستقيم فيهم إلا إذا أعدوا أنفسهم لاختبار جديد لكونية الكائنات والأشياء وال موجودات: «إننا، انطلاقاً من موقف نقه من الكائن قد عينته لنا (الميتافيزياء)، لا نستطيع إلا بالعسر والتمهل أن نعرف هذا الأمر المختلف، وهو أن الله لا يعود فيظهر لا في (العيش) الشخصي ولا في (العيش) الجماعي، بل في غور لجة الكينونة (الكون) عينها. إن جميع ضروب (ال العبادة) و (الكنائس) المألوفة حتى الآن وما شاكل ذلك على وجه الإطلاق لا يمكنه أن يهيئ تهيئة جوهريّة لتشابك الله والإنسان في وسط الكينونة (الكون)»^(٤٥). ومعنى ذلك أن ما ألفه الناس من ضروب الدين لا يستطيع أن يساعدهم على الإتيان باختبار جديد للإله الأخير. فالإنسان ينبغي له أولاً أن يختبر تخلّي الكينونة عن ذاتها وعن الكائنات. ومن ثم، يمكنه أن ينظر نظراً جديداً إلى كينونته وقد سلكت مسلكاً متواضعاً يليق بعظمة سر الكينونة عينها. وحينئذ يتهيأ له أن يختبر ملاقاة الله في معرك اختبار الكينونة المتجدد.

(44) «Der letzte Gott hat seine einzige Einzigkeit und steht außerhalb jener verrechnenden Bestimmung, was die Titel 'Mono-theismus', 'Pan-theismus' und 'A-theismus' meinen. 'Monotheismus' und alle Arten des 'Theismus' gibt es erst seit der jüdisch-christlichen 'Apologetik', die die 'Metaphysik' zur denkerischen Voraussetzung hat. Mit dem Tod dieses Gottes fallen alle Theismen dahin. Die Vielheit der Götter ist keiner Zahl unterstellt, sondern dem inneren Reichtum der Gründe und Abgründe in der Augenblicksstätte des Aufleuchtens und der Verbergung des Winkes des letzten Gottes», in: Heidegger, *Beiträge zur Philosophie*, p. 411.

(45) «Herkünftig aus einer durch die 'Metaphysik' bestimmten Stellung zum Seienden werden wir nur schwer und langsam das Andere wissen können, daß weder im 'persönlichen' noch im 'massenweisen' 'Erlebnis' der Gott noch erscheint, sondern einzig in dem abgründigen 'Raum' des Seyns selbst. Alle bisherigen 'Kulte' und 'Kirchen' und solches überhaupt kann nicht die wesentliche Bereitstellung des Zusammentreffens des Gottes und des Menschen in der Mitte des Seyns werden», in: Heidegger, *Beiträge zur Philosophie*, p. 416.

الإيمان الحقيقي إعراض عن الرجاء الوثقي

خلاصة القول أن هذا الإله الآخر لا يحتاج إلى الأديان ولا إلى الأنظومات اللاهوتية ولا إلى العبادات والطقوس حتى يتجلّى في معراجه الطارئ على التاريخ؛ فالآديان التي تؤله ما تظن فيه أسمى الكائنات، إنما تقطع خطأً جسيماً لأنها إنما تؤله كائناً من الكائنات وتضعه فوق الكائنات وفوق الكينونة. والحال أن الإله الآخر ليس فيه شيء من خصائص التأليه التي أفتتها الأنظومات الدينية. وليس هو من خارج الكينونة لأن الإنسان لا يستطيع أن يواجهه مواجهة الاصطدام الإيجابي (Zusammenstoß) إلا في صميم الكينونة وقد استعادت حريتها وانبسطت في مدى اصالتها الحقة. بيد أن عبور الإله الآخر وملاقاته في صميم الكينونة حادث من الحوادث التي لا يقوى الإنسان على انتظارها لأنها تأتي إليه من خارج تاريخ الأديان ومن خارج تاريخ الميتافيزياء ومن خارج تاريخ التدبير الإنساني المحسّن. وليس للإنسان أن يعتمد بإيمان الرجاء المترقب لاعتلام هذا الإله الآخر^(٤٤)؛ فاللذين في هذا الشأن يكاد يشبه اليقين العقلي الذي تفترضه الأنظومة الميتافيزيائية، في حين أن معراج الإله الآخر هو الاختبار الأقصى للبشرية جماء. وكما أن الإنسان المتفوق قد تصوّره نيشه في صورة الآتي البعيد، كذلك الإنسان القادر على اختبار معراج الإله الآخر يتصرّف هايدغر في صورة الآتي من آفاق الالقين التاريخي. ومن معانٍ لهذا الالقين التاريخي أنْ ما من إشارة واضحة تبيّن للناس أن مثل هذا الإنسان المنفتح على سر الكينونة والراعي لها والقابل لمعراج الإله الآخر والصائر له قد أزف ز منه وأضحى في حالة الإمكانيّة التاريخيّة القريب. ولذلك، كان الإله الآخر هو آخر ما سُتُّفرج عنه تخضّات الكينونة في حركة إقبالها إلى أصلّة حقيقتها: «الإله الآخر هو في الأبعد مما ينكشاف العُسر من الحيز الزمني لحقيقة الكينونة (الكون)»^(٤٧). وليس في مقدور الفكر أن يلتفّت إشارات مثل هذا الانكشاف العسير إلا إذا اعترف بعجزه وعوزه المدقع إلى تبصرٍ هو أشبه بالاستذكار أو الذكر (Andenken) الذي يستحضر عمق ذاته أمام عظمة سر الكينونة ويضرب في الأرض حجاً إلى الأصول القصوى.

(٤٦) انظر: Heidegger, *Besinnung*, p. 245.

ولذلك يُصر هايدغر على تحرير مجيء الإله الآخر من جميع أصناف المبادرات والنشاط التي يُخيل للإنسان أن الاضطلاع بها هو ضرب من ضروب الإعداد لمثل هذا المجيء: «لا يحسم تدين الناس السؤال عن الإله هل هو حي أو هل ما زال ميتاً، وتعجز عن ذلك بمقدار أكبر التطلعات اللاهوتية التي تنشط في الفلسفة وعلم الطبيعة. فلأنّ يعرف المرء هل الله هو الله إنما هو أمر ينبع من التكوّب الذي يكتف الكينونة (الكون) ويحدث في داخل هذه الكينونة (الكون)»:

«Ob Gott lebt oder tot bleibt, entscheidet sich nicht durch die Religiosität der Menschen und noch weniger durch theologische Aspirationen der Philosophie und der Naturwissenschaft. Ob Gott Gott ist, ereignet sich aus der Konstellation des Seyns und innerhalb ihrer», in: Martin Heidegger, *Bremer und Freiburger Vorträge*, Gesamtausgabe. III. Abteilung, Unveröffentlichte Abhandlungen, Vorträge, Gedachtes/ Martin Heidegger; Bd. 79 (Frankfurt am Main: Klostermann, 1994), p. 77.

(47) «Am fernsten im kaum enthüllten Zeit-Raum der Wahrheit des Seyns ist der letzte Gott», in: Heidegger, *Besinnung*, p. 256.

يبد أن الذكر في الفكر الجديد لا يُفضي، بحسب هайдغر، إلى الإيمان الديني؛ ذلك أن الفكر والإيمان حالتان مختلفتان لا تتوافقان على ضبط التصور الميتافيزيائي لله. وكما أنه لا يجوز الرابط السببي بين الله والكينونة، على نحو ما ذهب إليه المذهب التومائي في المسيحية، كذلك لا يجوز التقرير بين الفكر والإيمان لأن «الفلسفة حماقة بالنسبة إلى الإيمان المسيحي الأصلي»^(٤٨). فالتفكير يعني حصرًا برعاية الكينونة، فيما الإيمان يجعل الإنسان يتتجاوز محدوديته إلى ما يخالف منطق الإقرار بوحданية الكينونة وحرية انبساطها في الوجود. فإذا كان الفكر لا يطلب اليقينيات في إدراكه لمعنى الوجود، بل يُسر بالانفتاح المتورع على الأغوار السحرية التي تستوطنها الكينونة في أصلالة حقيقتها القصوى، كان مثل هذا الانفتاح أشبه بموقف التقوى الفكرية التي تستعليها المسائلة الورعنة الصابرة الوادعة. وعلى غرار فعل الوثوق الباطني الذي يفترضه الإيمان الديني، ينبري الفكر التقى المسائل يشق وثوقاً راسخًا بإمكانات جليلة تنطوي عليها الكينونة حين تتجلّى ببهاء غناها وتنشل ذاتها من قعر النسيان والتخلّي. فالقعر السحيق الذي تنحجب فيه الكينونة يربك الإنسان أيها إرباك حتى ليُصاب باليأس والإحباط. وحده الفكر الواثق يتربّص اعتلان الكينونة في أصلالة حقيقتها في حين أن زمن العقلانية الحسابية والتقنية المهيمنة والعلمية السائدة يوشك أن يعدم فيه كل ضرب من ضروب الرجاء المنعش. فالإنسان يدرك أن الكينونة غريبة عن كل الكائنات. وأماماً هول هذه الغربة أو الغرابة، لا بد للإنسان من أن يتحمل إرباكات الكينونة ومساءلاتها. فإذا بالذين يضطّلون بهذه المسائلة ويعرضون كيانهم لأهوال هذه الغربة هم «المؤمنون الأقحاح»^(٤٩): «إن الذين يسألون على هذا المنوال هم المؤمنون الأصليون الحقيقيون الذين ينظرون في عمق الأمور نظرةً الرصانة إلى الحقيقة لا إلى ما هو حقيقي فحسب، الذين ينبرون ليقرروا هل تبسيط الحقيقة أمامنا في جوهرها وهل هذا الانبساط لجوهر الحقيقة يحملنا نحن بعيننا ويفقدنا، نحن عشر العارفين والمؤمنين والفاعلين والصانعين، وبموجز العبارة نحن أصحاب التاريخ»^(٥٠). فإذا كان السؤال هو تقوى الفكر، فإن مثل هذه الوثوقية التقية هي التي تضع الإنسان في حضرة الكينونة تومئ إليه فيرعاها ويسترشدها ويسلك في سبيلها. وعندئذ يسقط التعارض القاتل بين الإيمان والمعرفة، يسقط بسقوط العقل الحساب الذي يتصور المعرفة إمساكاً بحقائق الكينونة القصوى وضيّطاً لحركة الوجود بأسره واستثماراً قاهراً للطاقات الكون بأجمعه.

جراء هذا التعرض الصادق لاغترابات الكينونة، يكتسب الإنسان قدرة فائقة على الاعتصام بالسكينة والترقب المادي. فالتفكير المتأمل المتبصر المستذكر (Andenken) لا يملك إلا أن يتضرر في خفر عظيم

(48) «Philosophie ist dem ursprünglich christlichen Glauben eine Torheit», in: Martin Heidegger, *Einführung in die Metaphysik*, Gesamtausgabe. II. Abteilung, Vorlesungen 1923-1944/ Martin Heidegger; Bd. 40 (Frankfurt am Main: Klostermann, 1983), p. 9.

Heidegger, *Beiträge zur Philosophie*, p. 12.: (٤٩) انظر

(50) «Die Fragenden dieser Art sind die ursprünglich und eigentlich Glaubenden, d. h. diejenigen, die es mit der Wahrheit selbst, nicht nur mit dem Wahren von Grund aus ernst nehmen, die zur Entscheidung stellen, ob das Wesen der Wahrheit west und ob diese Wesung selbst uns, die Wissenden, Glaubenden, Handelnden, Schaffenden, kurz die Geschichtlichen trägt und führt», in: Heidegger, *Beiträge zur Philosophie*, p. 369.

مروراً للإله الآخر. والانتظار هنا ليس فيه أي لون من ألوان «الرجاء الأجوف»^(٥١) الذي يعتمد على استحقاق الفوز الأخير بالرؤبة الطوباوية. وما دام للكينونة تاريخ خاص لا يرسمه الإنسان ولا يهيمن عليه، فإن إطلالة الإله الآخر لا تقترب بها يتوق إليه الإنسان من رغبة في المطلق خلاصية واكتمال في الذات خالص وارتقاء في التاريخ مخلص. فعبور الإله الآخر لا تعوزه انتظارات الناس ولا يخضع لتدارير الإعداد البشرية^(٥٢). وقد يكون من الأسباب التي تبرر بطلان مثل هذا الرجاء أن الإله الآخر هو أفق الآلهة كافة، يتنازل عن كل الآمال التي يعلقها عليه أهل الأرض وينحجب عن مداركهم انحصاراً طوعياً لأنه لا يستطيع الانضواء في مخيالهم الجياشة^(٥٣). وبما أنه الإله الآخر، إله النهايات القصوى، فهو يستنفذ ما ينطوي عليه الكلام البشري من طاقات قصوى. وإذا ما تكلم، فإن كلامه لا يتلقاه إلا الإنسان العازم على رعاية حقيقة الكينونة (الكون) في سر انحصارها. إنه الكلام المتجرد العابر من العبارة إلى الإشارة^(٥٤)، يشير من غير أن يفصح عن مدلول إشارته، ويومئ من غير أن يعلن صريح مقاصده. وبما أن الأمر على هذا النحو، فإن الإنسان لا يستطيع أن يُطلع على آفاق الكينونة في محدوديتها الجوهرية إلا «بمقتضى ما يستعد له من استشعار (Ahnung) طويل للإله الآخر»^(٥٥). ولا عجب، من ثم، أن يجمع الإله الآخر في محف الشعب الواحد جمع الصامتين الورعين الذين عاهم هدا الإله على صون حقيقة الكينونة وجعلهم في موضع الإصغاء الخضر لإشاراته. وهذا هو هايدغر نفسه، من بعد أن انعطف على فكره وركن إلى الكينونة توسيعه إليه وترشده، يُتتبّع لخدمة الله الوحيدة، خدمة «الإله الذي لم يعتلن بعد، بل سبق فأُعلن عنه»^(٥٦)، يخدمه على قدر ما يرعى السؤال الأوحد في الوجود كله، عنيت به سؤال الكينونة عن تداريرها المربكة. أمّا الرعاية، فهي الوجه الجديد للحكمة القديمة حيث الحكيم يُعرض عمداً عن المعرفة فلا يجرؤ على الإشارة إلا إلى مصدر الإشارة عينه، أي إلى المنفسح الذي منه تبتثق الإشارات الحقة^(٥٧).

(٥١) Heidegger, *Besinnung*, p. 42.

(٥٢) انظر:

Martin Heidegger, *Die Geschichte des Seyns*, Gesamtausgabe. III. Abteilung, Unveröffentlichte Abhandlungen, Vorträge, Gedächtnis/ Martin Heidegger; Bd. 69 (Frankfurt am Main: V. Klostermann, 1998), p. 97.

(٥٣) بما أن الإله الآخر هو أفق القراء، فإن الإنسان لا يمكنه أن يعيش عليه في أوساط الكائنات المستحبة لأغراض المفعة: «يمكنكم أن تفترسوا في جميع جوانب الكائن من غير أن تظهر آثار الإله فيها»:

«Alles Seiende mögt ihr durchstreifen, nirgends zeigt sich die Spur des Gottes. » Heidegger, *Die Geschichte des Seyns*, p. 59.

(٥٤) انظر: المصدر نفسه، ص ٤٠٨.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٤١٠.

(٥٦) [...] inständig im Wagnis des Seyns, gehörig dem einmaligen Dienst des noch nicht erschienenen aber verkündeten Gottes», in: Heidegger, *Besinnung*, p. 12.

(٥٧) انظر:

Martin Heidegger, *Feldweg-Gespräche (1944/45)*, Gesamtausgabe. III. Abteilung, Unveröffentlichte Abhandlungen, Vorträge-Gedächtnis/ Martin Heidegger; Bd. 77 (Frankfurt am Main: V. Klostermann, 1995), p. 85.

الغيبة الإلهية في استنهاضاتها الفلسفية واللاهوتية

لاريب في أن مقاربة هайдغر للإله الآخر تعارض معارضة صريحة ما أتت به الأنظومات الدينية، التوحيدية منها وغير التوحيدية، من تعريف الله. فالإله الآخر ليس هو إله الوحي على الإطلاق؛ الإله الآخر «هو الإله المختلف اختلافاً كلياً في مقابل جميع الآلهة التي وُجدت، وخصوصاً الإله المسيحي»^(٥٨). ومما لا شك فيه أيضاً أن هайдغر أراد أن يفوز بتصور جديد للكينونة، فأطلق عليها في كتاباته المتأخرة اسم الكوان، وبتصور جديد الله، فأطلق عليه عبارة الإله الآخر أو الإله الإلهي أو إله النهايات القصوى، وبتصور جديد للإنسان (الدازain)، فأطلق عليه صفة الراعي للكينونة والساهر على عبور الإله الآخر، وبتصور جديد للعلاقة الناشطة بين هذه المكونات كلها، فوصفها وصفاً حيوياً مستعيناً بحركة الإراغنيس، وبتصور جديد للاتلاف الذي يضم الناس المائتين والآلهة والأرض والسماء، فدعاه بالمتربع الأصلي (Geviert). هذا كله يُوضح عن رغبة شديدة في القطعية. والقطعية تستتي في إثر النحت كفياتٍ جديدة في التفكير الذي يضحي استذكاراً للأصول القصبية وطلبًا للقربي من الكينونة. وتستتي أيضاً إعراضًا عن التفكير العقلي المرادف لترصد حضور الكينونة الثابت وإقبالاً على التفكير المستذكرة المصغي المرادف لرعاية غياب الكينونة وامتناعها عن الإدراك.

ولما كان الأمر على هذه الحال، كان لا بد من تصوّر الله يُعتقد مما ألقته الأذهان منذ الزمن الإغريقي^(٥٩)؛ فالإله الآخر يشارك الكينونة كثيراً من خصائصها وصفاتها، ولو أنه لا يتماهى هو والكينونة. فهو يحتاج إلى الكينونة حتى يعبر عبوره الفريد، إذ ما من مجال وجود آخر غير الكينونة يُتيح له مثل هذا العبور. والكينونة تحتاج إلى مثل هذا العبور حتى تستقيم في الإنسان اختباراته القصوى في حقل الاتلاف الرباعي الذي يقرن الناس المائتين والآلهة والأرض والسماء بعضهم ببعض. ولذلك يمكن القول بأن الإله الآخر هو نداء الأصالة المنبعث من ضرورات الإقبال الهنوي إلى حقيقة الكينونة القصوى. وما دام جمِيع المذاهب الفلسفية والأنظومات الدينية والبناءات الأيديولوجية أخفق في إنقاذ الأرض من هيمنة العقل الحساب، فإن الخلاص لا يمكن أن يأتي إلا بواسطة هذا النداء الذي يطلقه الإله الآخر حين يقرر أن يعرّج على الناس في أحلك الأزمنة وأتعسها على الإطلاق. ولذلك أرسل هайдغر قوله الشهير في مجلة در شبيغل الألمانية: «وحده إلهٌ ما زال في إمكانه أن يخلصنا»^(٦٠).

(58) «Der Letzte Gott, der ganz Andere gegen die Gewesenen, zumal gegen den christlichen», in: Heidegger, *Beiträge zur Philosophie*, p. 403.

(59) يستحسن هайдغر للتفكير أن يجرد نفسه من مقوله الله الموروثة من الزمن الأفلاطوني حتى يستقيم به السبيل إلى اختبار فريد للإله الآخر. انظر:

Martin Heidegger, *Identität und Differenz* (Pfullingen: G. Neske, 1986), p. 64.

(60) «Nur noch ein Gott kann noch uns retten», in: Martin Heidegger, *Écrits politiques, 1933-1966*, présentation, trad. et notes par François Février, bibliothèque de philosophie (Paris: Gallimard, 1995), p. 260.

ومن ثم، فإن للإله الأخير، وقد صوره هайдغر في صورة العبور الخلاصي الذي يترقبه الناس على غير رجاء ظافر، لا يجوز أن ينقلب موضوعاً لبناء لاهوتى حديث تستنجد به الأنظومات الدينية وفي ظنها أنها به تتجاوز ثغر عمارتها النظرية. الاستئثار الوحيد الممكن للإله الأخير هو القول بأن مقولات الأنظومات الدينية لا تصون صوناً حقيقياً حرمة الله وامتناعه عن الإدراك^(٦١). ولذلك ينبغي أن يستبدلها الناس المدركون لعجز الإنسان عن الإمساك بالكينونة وبالله على حد سواء. فإذا أرادت الأديان أن تستفيد من تصوّر هайдغر للإله الأخير، كان عليها أن تُعيد بناء عمارتها اللاهوتية على أساس الإصغاء الوديع للإشارات المبعثة من انحصار الكينونة ومن الغيبة الإلهية. وهو إصغاء قد يُفضي بالإنسان إلى ضفاف لم يألفها التعلق اللاهوتي، وهذا ما لا تقوى عليه الأنظومات اللاهوتية المستندة إلى كلام الوحي الإلهي المباشر. ومن ثم، فالإله الأخير لا يصلح لعمارة لاهوتية جديدة لأنّه لا يزود الإنسان الطاقة على تجاوز انعطاباته البنوية ومأسيته الحتمية. وهو لا يصلح لروحية خلاصية تخرج بالإنسان من حقل الكينونة الأرحب. فائدته الوحيدة أنه بندائه الم قبل قد يذكر الإنسان بضرورة رعاية سر الكينونة وصون الائتلاف الرباعي والاضطلاع الوفي الواعد بحراسة الكون من كل أذية.

(٦١) اجتهد بعض البحوث في استئثار طاقات النقد والتّجدّد التي ينطوي عليها نقُّ هайдغر للأنطولوجيا وتصوّره للغيبة الإلهية. انظر، على سبيل المثال:

James M. Robinson and John B. Cobb, eds., *The Later Heidegger and Theology*, New Frontiers in Theology; v. 1 (Westport, Conn.: Greenwood Press, 1963); Gerhard Noller, comp., *Heidegger und die Theologie. Beginn und Fortgang der Diskussion*, Theologische Bücherei, Neudrucke und Berichte aus dem 20. Jahrhundert, Bd. 38. Systematische Theologie (München, Kaiser, 1967); John Macquarrie, *An Existentialist Theology; a Comparison of Heidegger and Bultmann*, Library of Philosophy and Theology (London, SCM Press, 1965); Hans-Jürg Braun, Hrsg., *Martin Heidegger und der christliche Glaube* (Zürich: Theologischer Verlag Zürich, 1990); Josef Brechtken, *Geschichtliche Transzendenz bei Heidegger; die Hoffnungsstruktur des Daseins und die gott-lose Gottesfrage*, Monographien zur philosophischen Forschung; Bd. 99 (Meisenheim am Glan: A. Hain, 1972); Philippe Capelle, *Philosophie et théologie dans la pensée de Martin Heidegger*, philosophie et théologie (Paris: les Ed. du Cerf, 1998); Helmut Danner, *Das Göttliche und der Gott bei Heidegger*, Monographien zur philosophischen Forschung; Bd. 76 (Meisenheim am Glan, A. Hain, 1971); J. Beaufret [et al.], *Heidegger et la question de Dieu*, recueil préparé sous la direction de Richard Kearney et Joseph Stephen O'Leary, figures (Paris: B. Grasset, 1980); Francis Guibal, *Et combien de dieux nouveaux: Approches contemporaines*, philosophie de l'esprit (Paris: Aubier Montaigne, 1980); Emilio Brito, *Heidegger et l'hymne du sacré*, Bibliotheca ephemeridum theologicarum lovaniensium; 141 (Leuven: University Press; Uitgeverij Peeters; Paris: Peeters France, 1999); George Kovacs, *The Question of God in Heidegger's Phenomenology*, Studies in Phenomenology and Existential Philosophy (Evanston, Ill.: Northwestern University Press, 1990); Günther Pöltner, hrsg., *Auf der Spur des Heiligen: Heideggers Beitrag zur Gottesfrage* (Wien: Böhlau, 1991); Bernard Sichère, *Seul un Dieu peut encore nous sauver: Le Nihilisme et son envers*, Philosophie (Paris: Desclée de Brouwer, 2002), et J. Greisch, «L'Appel de l'être et la Parole de Dieu. Cinquante ans de réception théologique de la pensée de Heidegger», *Etudes*, no. 361 (December 1984), pp. 675-688.